مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات

١



المكتبة العلمية الحديثة

مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات

المكتبة العلمية الحديثة

النظرات

مقدمة

يسألني كثير من الناس كما يسألون غيري من الكتاب : كيف أكتب رسائلي ، كأنما يريدون ان يعرفوا الطرق التي أسلكها إليها فيسلكوها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ، فاني لا احب لهم ولا لأحد من الشادين في الادب ان يكونوا مقيّدين في الكتابة بطريقتي او طريقة احد من الكتاب غيري ، وليعلموا - إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر - اني ما استطعت ان أكتب لهم تلك الرسائل بهذا الأسلوب الذي يزعمون انهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأني استطعت ان أنفلت من قيود التمثل والاحتذاء ، وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤها علي وعجزها عن ان تمسك الا قليلا من المقروءات التي كانت تمر بي ، فقد كنت أقرأ من منثور القول ومنظومه ما شاء الله ان أقرأ ، ثم لا ألبث ان أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي الا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به ، وما أذكر أني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي او أستعين

بـه عـلى تهذيب بيـاني ، او تقويم لساني ، او تكثير مـادة علمي باللغـة والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت امرأ احب الجمال وأفتتن به كلما رأيتـه في صورة الإنسان ، او مطلـع البـدر او مغرب الشمس ، او هجعة الليـل ، او يقظة الفجر ، او قمم الجبال ، او سفوح التـلال ، او شواطىء الانهار ، او أمواج البحار ، او نغمة الغناء ، او رنة الحداء ، او مجتمع الاطيار ، او منتثر الازهار ، او رقة الحس ، او عذوبة النفس ، او بيت الشعر ، او قطعة النثر ، فكنت أمر بروض البيان مراً ، فـاذا لاحت لي زهرة جميلة بـين أزهاره ، تتالق في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت أمامها وقفة المعجب بهـا ، الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها او إزعاجها من مكانها ، ثم اتركها حيث هي ، وقد علقت بنفسي صورتها الى أخرى غيرها ، وهكذا حتى اخرج من ذلك الروض بنفس تطـير سروراً به ، وتسيل وجـداً عليه ، وما هو الا ان درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت ببعض ازهارها بضع وقفات ، حتى شعرت اني قد بدلت من نفسي نفساً غيرها ، وان بين جنبي حالا غريبة لا عهـد لي بمثلها من قبل ، فأصبحت أرى الاشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً ، والنفس بهجة ، فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمـال فرأيت لبـه وجوهره ، وأرى الخـير فرأيت حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى الباساء فرأيت مدامعها ، وارى العين فرأيت السحر الكامن في

محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترقرقة بين ثناياها ، وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الراقصة في جو السماء ، وأرى القمر فرأيت شعاعه يهم ان يسيل على جوانبه سيلا ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد الظلام دبيب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية على الكون من فروج قميص الليل ، وأرى الليل فرأيته وهو يهوي بأجنحته السوداء الى الارض هوى الكرى الى الأجفان ، وكنت أسمع خرير المياه فسمعت مناجاتها ، وحفيف الاوراق ففهمت نغماتها ، وتغريد الاطيار فعرفت لغاتها ؛ فاحببت الأدب حباً جماً ملأ ما بين جانحتي ؛ فلم تكن ساعة من الساعات أحب الي ولا آثر عندي من ساعة أخلو فيها بنفسي وامسك على بابي ثم أسلم نفسي الى كتابي فيخيل الي اني قد انتقلت من هذا العالم الذي أنا فيه الى عالم آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فاشهد بعيني تلك العصور الجميلة ، عصور العربية الأولى ، وأرى العرب في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطنابها ، واعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وحبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وحداءها وغناءها ، وأسواق شعرائها ، ومواقف خطبائها ، وفقرها وإقلالها ، وشحوب وجوهها ، وسمرة ألوانها ، وضوى أجسامها وترددها في بيدائها بين حمارة القيظ وصبارة البرد ، وتنقلها من صحراء الى ريف ، ومن مشتى الى مصيف ، ومن نجد الى وهد ، ومن

(١) التجاليد : الجسم . (٢) شدة الحر . (٣) شدة البرد .

شرف الى غور ، وانتجاعها مواقـع الغيث ، ومنابت العشب ، وقناعتها من الطعام باحفان التمر وقعاب اللبن وأصواع الشعير ، فاذا جـد الجـد أكلت القد واشتوت الجـلد ، وتبلغت بالضب واليربوع ، وعراقيب الآبال ، وأظلاف الابقـار ، واكتفت من اللبـاس بأكسية الكرابيس وأرديـة الاشعار ، وقمص الاوبار ، فـاذا أعوزها ذلك لبست الظـل ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطه ، ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش ولينه ، ثم أراها بعد ذلك وقـد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية فأرى رغـد عيشها، ولين طعامها واعشوشاب جانبها، وعذوبة مواردها ومصادرها ، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس واعلاق الروم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان، واللؤلؤ المنثور من الولدان، وأرى مجالس غنائها ، ومجامع أنسها ، ومسارح لهوها ، ومجالات سبقها ، وملاعب جيـادها ، ومـذاهب طرائدها ، ومواقف حجـهـا ، وازدحام شعرائها عـلى ابواب أمرائهـا ، وجوائز أمرائهـا في ايـدي شعرائها ، وانطـلاق ألسنتها بوصف مـا تشاء من الاعواد والـبرابط والمعازف والمزاهر والاقداح والدنان والموائـد والصحف ، وألوان الطعام حـلوه وحامضـه ، وأصنـاف الشراب حـلاله وحرامـه ، والطيور المحلقة في الأجواء ، والسفن الذاهبة في الدأمـاء ، والرياض الخضراء والغابات الشجراء ، والقصور وتماثيلهـا ، والبحـيرات واسماكـهـا ، والانهار

---

(١) السير يقد من جلد . (٢) الدأماء : البحر .

وشواطئها ، والازهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيب الحب في القلب ، والغناء في السمع ، والصهباء في الاعضاء ، وخلجة الشك ، ولمحة الفكر ، وبارقة المنى

ثم لا أشاء ان أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، او أدباً غضاً ، او حباً وفياً ، او مجوناً مستظرفاً ، او حوراً مستملحاً ، الا وجدته ؛ ولا ان اسمع ما تهتف به العاتق في خدرها ، وما يحدو به الحادي في اعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشق ، وما يهذي به الشارب ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به الماتح (١) الا سمعته . ولا ان اعلم ما يهجس في نفس المحب اذا اشتمل عليه ليله ، والحائر اذا ضل به سبيله ، والثاكل اذا فجعت بواحدها ، والموتور اذا حيل بينه وبين واتره ، والكريم اذا لاح له منظر من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غربته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف اذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل اذا وقف بين الرجاء واليأس ، والبائس اذا أعوزه القوت ، واليائس اذا أعوزه الموت ، والعزيز اذا ذل ، والمشرف اذا هوى ، والشريف اذا عبث بشرفه عابث ، والغيور اذا لمس عرضه لامس ، الا علمته ، ولا ان اعرف خلق الدهر في تنقله بالناس ما بين رفع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا اثر يده السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، واقفار المغاني ، وتصويح الرياض ، الا عرفته ؛ فكنت اجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك ما لا يقوم به عندي كل ما ينعم به

---

(١) الماتح : المستقي على البئر .

الناعمون من رغد في العيش ورخاء حتى ظننت ان الله سبحانه وتعالى قد صنع لي في هذا الأمر ، وانه لما علم انه يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجدودين من مال او جاه اعيش في ظله ، وانعم بثمرته زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم ، وزوره (١) لي تزويراً بديعاً ووضع لي فيه من الملاذ والمناعم ما لم يضع لغيري . رحمة بي وإرعاء على ان اهلك ، او يهلك لي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب ، وهكذا لا ازال محلقاً في هذا الجو البديع من الخيال اضحك مرة واكتئب أخرى ، وأتغنى حيناً وابكي احياناً حتى يرميني الباب ببعض الطارقين او يستعيد إلي نفسي مستعيد .

ولم يكن حولي لذلك العهد من يستعين بمثلهم مثلي على الأدب احد ، لأنني كنت اعيش في مفتتح عهدي به — ولم اكن زاهيت إذ ذاك الثالثة عشرة — بين اشياخ ازهريين من الطراز القديم لا يرون رأيي فيه ، ولا يتعلقون منه بما اتعلق فكانوا يرون ان التوفر عليه او الإلمام به عمل من اعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان ، فكان الذين يتولون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ونزعات الصبوة ضناً بي — يزعمون — ان انفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها ! فكنت لا استطيع ان ألم بكتابي الا في الساعة التي آمن فيها على نفسي ان يلموا بأمري — وقليلا ما كنت اجدها — وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون

(١) زوره : حسنه وقومه .

فاذا عثروا في خزانتي او تحت وسادتي او بين لفائف ثوبي على ديوان شعر او كتاب أدب خيل إليهم انهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، او الزجاجة في جيب الغلام ، او العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم والغصص بمكانهم ما لا يحتمل مثله مثلي ؛ وهم لا يعلمون – احسن الله إليهم – انهم وجميع من يدور به جدار مسجدهم حسنة من حسنات الأدب الذي ينقمون منه ما ينقمون ، ويد من اياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري ؛ فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين ايديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين ، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون ان يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم ، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً ، كما يعلمون ان الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم ، وان الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به مايحاول فهمه من عبارات العلوم واساليبها ، والدليل الذي يتسمته ويترسم مواقع اقدامه في فهم اصول الدين ليكون مجتهداً ان استطاع او واقفاً على منازع المجتهدين ، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق اغراضه واعمقها واقصاها مكاناً من قلبه ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلماً نافعاً ، ولو ان هؤلاء الزارين على الأدب من علماء الدين وشيوخه – وهم اليوم والحمد لله قليل ، بل هم في طريق الفناء والانقراض – قد تعلقوا منه بما كان يتعلق

اسلافهم وأئمتهم من قبل لنالوا بـه في دينهم خيراً ، ولاستدفعوا بـه عن انفسهم في أمره شراً عظيما ، فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة ، وما زالت آيات الكتاب ومتون الاحاديث سائغة هنيئة ، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ولا تطير بجنباتها الاوهام والظنون ، حتى جهل علماء الدين والادب ، ففسدت اذواقهم ، وضلت افهامهم ، فكثر بينهم التاويل والتخريج ، ووهت تلك العقدة الوثيقة بين الالفاظ والمعاني ، واسترخت عراها من ايديهم ، فاصبح كل لفظ في نظرهم محتملا لكل معنى ، حتى ما يابى احدهم على الآخر شيئاً ، وتهافت ذلك الحاجز الحصين الذي كان قائماً بين الحقيقة والمجاز ، والحقيقة والخيال ، فبغى بعض الكلم على بعض ، وعاث كل منها في تربة صاحبه إقبالا وإدباراً ، وجيئة وذهوباً وصعوداً ونزولا ، فاستطاع الواغلون في الدين والناصبون له ان يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة الغريبـة في اساليبهـا ومناهجها عن مناهـج العرب واساليبهم ما لا يضبطه الحساب كثرة ، فهلكت الأمة بـين هـذا وذاك هلكا لا تزال تتجرع كاسه المريرة حتى اليوم .

فالحمد لله أولاً ، وللأدب ثانياً ، عـلى نجاتي منهم فـيما كانوا يرومون بي ، ويحاولون مني ، بل أحمد الله إليهم كذلك فقد كفيت بسوء رأيهم في الأدب ونقمتهم عليـه شر من يدخل بيـني وبـين نفسي في المفاضلة بـين شـاعر وشاعر ، وكاتب وكاتب ، او الموازنـة بـين اسلوب واسلوب ، وديباجة وأخرى ، فـلم يكن لي عون على ذلك كلـه غـير شعور نفسي وخفوق قلبي خفقة السرور او الألم ان مر بي ما احب او مـا اكره من حسنات القول او سيئاته ، من حيث لا اعرف سبيـل ذلك ولا مـاتاه ،

فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب الذي تطربه نغمة وتزعجه أخرى، فيطير بالاولى فرحاً وبالثانية جزعاً، وقد يكون ضعيف الإلمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم، فكنت لا أقرأ الا ما أفهم، ولا أفهم الا ما أشعر انه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس، فاذا هو في كبد الرمية ولبها، فان رأيت ان المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاظلة، والاساليب الملتوية، علمت ان القائل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه لأنه لا يعرف كيف يفضي به، وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ولم يدر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها، فهو يتوهمه توهماً ويجمجمه جمجمة ويهذي به هذياناً فلا سبيل له الى الإفصاح عنه، وإما داهية محتال قد علم ان المعنى الذي يجول في نفسه ويتردد في خاطره تافه مرذول وكان لا بد له ان ينفقه (١) على الناس ويزخرفه لهم ويزوره (٢) في اعينهم، فهو يكسوه اسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله حتى اذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم انهم قد ظفروا بمعنى غريب، او خاطر بديع، ووجدوا فيه عند الوصول إليه من اللذة والمتعة ما يجد الظامىء في ضحضاح (٣) الماء الكدر اذا أبعد النجعة في طلبه ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء، وإما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم ان ضعفاء الافهام من الناس، وهم سواد الامة ودهماؤها، لا يرضون عن معنى من

(١) ينفقه – بالتشديد – يجعله نافقاً ، أي رائجاً .

(٢) زور الشيء : حسنه وزخرفه .   (٣) الضحضاح : الماء القليل في قعر البئر .

لمعاني ولا يستسنون (١) قيمته ولا يقيمون له وزناً الا اذا جاءهم في جلدة من الالفاظ المتكرسه المتقبضة ، وانهم اذا ورد عليهم أثمن المعانيَ واغلاها، واكرمها جواهراً واطيبها عناصراً في ثوب من الاساليب الرقيقة الشفافة ذهب بهم الوهم الى انه ما جاءهم على هذه الصورة الا لأنه ساقط مبتذل ، او سوقي مطروق فاحتقروه وازدروه ، وكان يرى لضعف حيلته وسقوط همته . ان لا بد له من موافاة رغبتهم وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة والعي ! وتملقهم بالغموض والإبهام .

وإما أعجمي يظن ان اللغة العربية حروف وكلمات وهو لا يعرف منها غيرها فينطق بشيء هو اشبه الاشياء بما يترجمه بعض المترجين من اللغات الاعجمية ترجمة حرفية ، فان نعيت عليه غرابة اسلوبه واستعجامه والتواءه على الفهم كان مبلغ ما ينضح به عن نفسه ان المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطاع إلباسها الاكسية البدوية ، والاردية العربية ، كأنما هو يظن ان المعاني والخواطر خطط وأقسام ، وأنصبة وسهام ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم ! أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي ان الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ولا يصور فيها صورة عقله . وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الاعجمية التي يعرفها لاصقة بأثوابها الاصلية ، فلما أراد ان يفضي بها الى العرب ، وكان غير مضطلع بلغاتهم ولا متمكن من اساليبهم عجز عن ان ينزع عنها اثوابها اللاصقة بها فنقلها إليهم كما هي الا ما كان

(١) استسنى قيمته : رآها سنية رفيعة .

من تبديل حرف بحرف او لفظ باخر من حيث يظن انـه يهتف بشيء قام في نفسه او يفضي بخاطر من خواطر قلبه ، وإمـا شحيح يأبى له لؤم نفسه وخبث فطرته ان يمنح الناس منحته سائغة هنيئة دون ان يكدرها عليهم بالمطل والتسويف والمدافعة والمحاولة . والشح خلق اذا نزل منزله من نفس صاحبه اقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ولا يظفر منه متعصر ببلة . فيضن بعلمه كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق كما يقبض يده عن الإنفاق ويصرد [1] عطاءه تصريداً ليستديم حاجة الناس اليه كما يجيع كلبه ليتبعه ، ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على المعجزة والجاهلين والمحتالين والكاذبين والاشحاء والباخلين .

وكان أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ــ سواء في ذلك المتقدم والمتاخر والنابه والخامل ــ اوصفهم لحالات نفسه او أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويراً صحيحاً كأنما هو يعرضه على انظارهم عرضاً ، او يضعه في أيديهم وضعاً ، فان ظننت ان القائل كاذب فيما يقول او انه يرسم صورة غير الصورة التي تتلجلج في نفسه ، او انـه لغوي يفر من ضعف اسلوبه وفساد نظمه الى أكمة من الألفاظ الغريبة والتراكيب المستوعرة يكمن وراءها ، او ناقل يتخذ الكتابة حقيبة يحشوها بالمسائل العلمية والوقائع التاريخية حشواً ، او مترجم ينقل عن اللغة الاعجمية التي يعرفها آراء علمائها وكأنما هو

(١) صرد العطاء : أعطاه قليلاً قليلاً .

صاحبها ، او شعرت انه قد قدر في نفسه ، وهو يكتب كلمته ان يكون بليغاً فيها او مبدعاً ليعجب الناس منها ، وكان كل حظه عندي ان أعرف له قدره في العلم ومنزلته من الذكاء والفهم ان احسن فيما يقول ، ولكنني لا أعده كاتباً ولا شاعراً ، لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين ، وفضل الرثاء رثاء الثاكلين ، وأنبل المدح مدح الشاكرين ، وأشرف العظات عظات المخلصين ، وأجمل البكاء بكاء المنكوبين ، واحسن الهجاء هجاء الصادقين ، وأبرع الوصف وصف الرائين المشاهدين .

ولا أدري ما الذي كان يعجبني في مطالعاتي من شعر الهموم والاحزان ، ومواقف البؤس والشقاء ، وقصص المحزونين والمنكوبين خاصة ، فقد كان يعجبني كثيراً ويبكيني أحر بكاء وأشجاه شقاء المهلهل في الطلب بثار أخيه ، وشقاء أمرىء القيس في الطلب بثار أبيه ، وبكاء جليلة أخت جساس على زوجها وأخيها ، وبكاء عدي بن زيد على نفسه في سجن النعمان ، وبكاء متمم بن نويرة على اخيه مالك حتى دمعت عينه العوراء ، وبكاء ليلى بنت طريف على أخيها الوليد ، وهيام أم حكيم زوج عبيد الله بن العباس في المواقف والمواسم تنشد طفليها الذبيحين ، وبكاء الشريف على المناذرة في خرائب الحيرة . وبكاء أبي عبادة على الاكاسرة في خرائب المدائن ، وبكاء الرضى على بني هاشم ، وبكاء العبلى على بني أمية ، وبكاء الرقاشي على بني برمك ، وذل أبي فراس في أسره ، والمعتمد بن عباد في سجنه ، وبكاء الوزير ابن زيدون على نفسه مرة ، وعلى ولادة أخرى ، وبكاء ابن مناذر على عبد المجيد ، والبحتري

على المتوكل ، وابن اللبانة على ابن عباد ، والتيمي على يزيد بن مزيد ، ومروان بن حفصة على معن بن زائدة، وجنون المجنون بليلاه ، وجلوسه في جنبات الحي منفرداً عارياً مذهوب اللب مشترك العقل يهذي ويخطط في الأرض ويلعب بالتراب ، ثم هيامه بعد ذلك مع الوحش في البرية لا ياكل الا ما ينبت فيها من بقل ، ولا يشرب الا مع الظبـاء اذا وردت مناهلها، وراحته الى الطريق يصعد مع مصعديه، وينحدر مع منحدريه، حتى هلـك في أرض مقشعرة مغبرة بين الصخور والاحجار ، وشقاء قيس بلبناه بعد ان طلقها براً بوالده ، ونزولا على حكمه ، وذهاب الحب بـه ذلـك كل مذهب ، حتى هلـك بـين الوفاء للفضيلة والوفاء للحب ، وموقف جميل بن معمر بـين يـدي أبيـه ، وهو يعتب عليه أشد العتب وأمره في استهتاره بحب بثينة ومخاطرته بنفسه في الإلمام بحبها فيقول : يا أبت ! هل رأيت قبلي أحداً قدر ان يدفع عن قلبه هواه او ملك ان يسلي نفسه او استطاع ان يتقي ما قضى به عليه ، والله لو قدرت ان أمحو ذكرها من قلبي او أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل الى ذلك ، وإنما هو بلاء بليت به لحين قـد أتيح لي ، وأنـا أمتنع عن طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمداً ، وهذا جهدي ومبلغ مـا أقدر عليه ، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه انـه كان يئد بناته في الجاهلية ، وان واحـدة منهن ولدتها أمهـا وهو في سفر ، فدفعتها الى أخوالها ضناً بها على الموت وإشفاقاً عليها ، فلمـا عـاد وسألها عن الحمـل قالت له انها ولدت مولوداً ميتاً . ثم مضت عـلى ذلـك

سنون عدة حتى كبرت البنت ويفعت فزارت آمها ذات يوم فرآها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكائها وسالها عنها فحدثته حديثها على وجهه، ولم تكتمه شيئاً طمعاً في ان يضمها اليه ويمنحها رحمته وعطفه فامسك عنها أياماً، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم وخرج بها الى الصحراء حتى أبعد فاحتفر لها حفرة وجعلها فيها فأخذت تقول: يا أبت ما تريد ان تصنع بي، وما هذا الذي تفعل؟ وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت اليها، وهي تئن وتقول: أتاركي انت يا ابت وحدي في هذا المكان ومنصرف عني؟ حتى واراها وانقطع أنينها، وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته، ثم وقفت على قبره تودعه. وتقول: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً، وفقدتك سريعاً، وكأن لم يكن بين الحالين مدة التذ بعيشك فيها، فاصبحت بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاتاً سحيقاً وصعيداً جرزاً، اللهم انك قد وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتنيه وشيكاً ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وعدك، ورضيت قضاءك، فارحم اللهم غربته، وآنس وحشته، واستر عورته يوم تنكشف الهنات والسوءات؛ واثكل الوالدات! ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن، وأطول ليلهن، وأقل انسهن، وأشد وحشتهن، وابعدهن من السرور، واقربهن من الاحزان، وشقاء ذينك البائسين المنكوبين عروة بن حرام وعفراء بنت عقال ومناصبة الدهر لها وانقطاع سبيله بها حتى اصبحت زوجاً لغيره

وأصبح بعدها هائماً مختبلا يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فجاج الارض ومخارمها ، حتى بلغ منزلها ذات يوم فتنكر حتى زارها ، وهو يظن ان زوجها لا يعلم من أمره الا انه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم انه يعرف حقيقته ، وانه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له ، عزم على الانصراف حياء منه وقال لها : يا عفراء ، انت حظي من الدنيا ، وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أجمل هذا الرجل عشرتي واحتمل لي ما لا يحتمله أحد لأحد حتى استحييت منه ، وإني راحل من هذا المكان ، واني عالم أني راحل الى منيتي ، وما زال يبكي وتبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه وأصابه غشي وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خماراً لعفراء كانت زودته إياه فيفيق ، حتى بلغ حيه وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامع كلمة ولا أنة حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر بعض الناس فرآه مطرحاً بجانب خبائه ، فسأله عما به ، فوضع يده على صدره ، وقال :

كان قطاة علقت بجناحها   على كبدي من شدة الخفقان

ثم شهق شهقة كانت نفسه فيها،فلما بلغ عفراء خبره قامت الى زوجها وقالت : لقد كان من خبر ابن عمي ما كان ، وقد مات في وبسببي ولا بد ان أندبه وأقيم مأتماً عليه ، فقال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى ماتت في اليوم الرابع . وشقاء سعد الوراق بحب عيسى النصراني حينما علم ان أهله قد بنوا له ديراً بنواحي الرقة ليترهب فيه ويحتجب عن

الناس فضاقت عليه الدنيا بما رحبت وأحرق بيته وفارق أهله واخوانه ولزم صحراء الدير عله يجد السبيل الى الوصول اليه ، فامتنع عليه ذلك بعد ما ذل للرهبان وتخضع وتأتى لهم بكل سبيل فلم يجده ذلك شيئاً ، فصار الى الجنون وحرق ثيابه وأصبح عريان هائماً لا شان له الا ان يقف بكل طائر يراه على شجرة فيناشده الله ان يبلغ رسائله الى عيسى ، حتى رآه بعض الناس في بعض الايام ميتاً الى جانب الدير . وأمثال ذلك من مواقف البؤس ومصارع الشقاء ، كأنما كنت أرى ان الدموع مظهر الرحمة في نفوس الباكين ؛ فلما أحببت الرحمة أحببت الدموع لحبها ؛ او كأنما كنت أرى ان الحياة مواطن البؤس والشقاء ومستقر الآلام والاحزان ، وان الباكين هم أصدق الناس حديثاً عنها ، وتصوراً لها ، فلما أحببت الصدق أحببت البكاء لأجله ؛ او كأنما كنت أرى ان بين حياتي وحياة اولئك البائسين المنكوبين شبهاً قريباً وسبباً متصلا ؛ فانست بهم وطربت بنواحهم طرب المحب بنوح الحمائم وبكاء الغمائم ، او كأنما كنت في حاجة الى بعض قطرات من الدمع أتفرج بها مما أنا فيه ، فلما بكى الباكون وبكيت لبكائهم وجدت في مدامعهم شفاء نفسي وسكون لوعتي ؛ او كأنما كنت أرى ان جمال العالم كله في الشعر وان الشعر هو تفجر من صدع الافئدة الكليمة فجرى من عيون الباكين مع مدامعهم ، وصعد من صدورهم مع زفراتهم .

تلك أيامي التي سعدت بها برهة من الدهر ومر لي فيها أحسن ما مر لأحد والتي لا أزال أذكرها بعد مرور تلك الاعوام الطوال فأكاد أشرق

بدمعي لذكراها ، ثم انثنيت فوجدت يدي صفراً منها وإذ أنا بين يدي هذا العالم المظلم المقشعر عالم الحقيقة والألم ، فنظرت اليه نظر الغريب الحائر الى بلد لا عهد له به ولا سكن له فيه فرأيت مخازيه وشروره وظلمة أجوائه ، واغبرار سمائه ، وقتال الناس بعضهم بعضاً على الذرة والحبة والنسمة والهبوة ، واتساع مسافة الخلف بين دخائل القلوب وملامح الوجوه ، وسلطان القوة على الحق وغلبة الجهل على العلم . واقفار القلوب من الرحمة ، وجمود العيون عن البكاء ، وعجز الفقراء عن فتات موائد الاغنياء ، وتمضغ الاغنياء بلحوم الفقراء ، ورأيت الترائي بالرذيلة حتى ادعاها لنفسه ونحلها إياها من لا يتخلق بها طلباً لرضا الناس عنه برضاه عنها ، ورأيت البراءة من الفضيلة حتى فر بها صاحبها من وجوه الساخرين به والناقمين عليه فرار العاري بسوأته والموسوم بخزيته. ورأيت الرجل والمرأة وقد عمرا كل منهما ثوبه عن جسمه وألقاه بين يديه ، ثم تقايضا فلبست قباءه ولبس غلالتها فاصبح امرأة لها من النساء التكسر والتبرد وأصبحت رجلا له من الرجال التوقح والتشطر ورأيت الدين وهو دوحة السلام الخضراء التي يستظل بها الضاحون من لفحات الحياة وزفراتها قد استحال في أيدي الناس الى سهام مسمومة يحاول كل منهم ان يصيب بها كبد أخيه فلا يخطئها ، ورأيت ضلال الأسماء عن مسمياتها وحيرة مسمياتها بينها ، واضطراب الحدود

---

(١) الهبوة : الغبرة . (٢) عمرا الثوب عن جسمه : ألقاه عنه .
(٣) تشطر : صار شاطراً ؛ والشاطر هو من أعيى أهله خبثاً .
(٤) الضاحي : المتكشف للشمس .

والتعاريف عن أماكنها ومواقفها حتى دخل فيها ما لم يكن داخلا ، وخرج منها ما لم يكن خارجا ، فسمى الشح اقتصاداً ، والكرم اسرافاً ، والحلم جبناً ، والسماجة جرأة ، والسفاهة براعة ، والفجور فتوة ، والتبذل حرية ، واشتبهت طرق الفضيلة ومسالكها على من يريد ركوبها ، لأنه يجد على رأس كل واحدة منها زعيماً من زعماء الخديعة والكذب يصرفه عنها الى غيرها، وكنت أرى ان الادب حال قائمة بالنفس تمنع صاحبها ان يقدم على شر او يحدث نفسه به او يكون عوناً لفاعليه عليه ، فإن ساقته اليه شهوة من شهوات النفس او نزوة من نزواتها وجد في نفسه عند غشيانه ومخالطته من المضض والارتماض ما ينغص عليه عيشه ، ويقلق مضجعه ، ويطيل سهده وألمه ، فإذا هو صورة من صور الجوارح وعرض من أعراض الجسم لا دخل له في جوهر النفس ، ولا علاقة بينه وبين الحس والوجدان ، فاكثر الناس عند الناس أدباً ، وأقومهم خلقاً ، وأطهرهم نفساً : من لا يفي على شرط أن يعد ، ومن يكذب على ان يكون كذبه سائغاً مهذباً ، ومن يملأ صدره موجدة وحقداً على ان يكون بساماً ضحوك السن ، ومن يسرق على ان يستطيع العبث بمواد القانون وخداع القضاة عنها ، ومن يبغض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يحفظ تلك المصطلحات اللفظية وتلك الصور الجافة من الحركات الجسمية ، التي تواضع عليها المتكلفون في الزيارة والاستزارة والهناء والعزاء والمؤاكلة والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً الى صغر النفس واسفافها ، اكثر مما يرجع الى علوها

وكالها ، فداخلني من ذلـك خطر عظيم لم استطع ان أملك نفسي معـه ، كأنما خيـل اليّ ـ لقرب عهدي بمـا أرى ـ انني أرى شيئاً عجيباً ، او منظراً غريباً ، او كأنما كنت احسب ان عالم الخيال الذي كنت فيـه إنما هو صورة صحيحة لعالم الحقيقة الذي انتقلت اليه ، فأزعجني مـا رأيت من هـذا الاختلاف العظـيم بينهما ، فارسلت الكلمة اثر الكلمة كما يتنفس المتنفس او يئن الحزين ، فقرأ ذلك بعض الناس ، فسموا ما رأوه كلاماً ، ثم ما زالوا يستحسنون ما أقول ويغرونني بأمثاله ، وما زلت اطمع فيهم وأرجو ان اصيب ما في نفوسهم ، حتى سموني كاتباً .

وكان لذلك الأدب الذي توليت بـه نفسي فيما مضى أثر بـاق عندي حتى اليوم فاني لا احسن ان اكتب كلمة يفضي بها غيري او أعـبر عن معنى لا يقوم بنفسي او ابكي على من لا يحزنني فراقه . او اندب من لا يفجعني موته او استنكر ما استحسن . او استحسن ما استنكر ، كما لا استطيع ان أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزناً شديداً ، او طرباً كثيراً ، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بمـا تركه عندي من خير او شر ، وما اعلم اني كتبت كلمة في شأن من الشئون الا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي . فقد كنت رجلاً لا احب الكذب ، ولا آخذ نفسي به ما وجدت منه بـداً ، فابغضت الكاذبين بغض الارض للدم . فكان من همي ان اقاتلهم على الصدق قتالاً مستمراً ، حتى أصل بهم الى احدى الحسنيين: إما ان يكونوا صادقين وإما ان يعلم الناس انهم كاذبون، وكنت إنساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه المريشة لم يرمني به ،

ولا جرعة من كاس مصائبه ورزاياه لم يجرعني إياها ، فقد ذقت الذل أحيانا ، والجوع أياما ، والفقر اعواما ،ولقيت من باساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشر ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين . ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ، فكان من همي ان أبكي كل بائس ، واندب كل منكوب ، واطلب رحمة القوي الضعيف ، والغنى للفقير ، والعزيز للذليل .

وقد قدر لي فيما مر بي من ايام حياتي ان رأيت بعيني من وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع اليه ان يرضخ لها بقليل من المال تستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوأة ابنتها ، فأبى ذلك عليها وقال لها ـ وهو يحسب انه يعقل ما يقول ـ : أيتها المرأة لا حق لابنتك عندي ولا عند ولدي . فلم يكن حظه منها فيما كان من أمرها باكبر من حظها منه ، ورأيت من تزوج من فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقداً قديما ، فما دنا منها ليلة البناء بها حتى صدف عنها صارخا : أيها الناس ان الفتاة مريبة . وكان كاذبا فيما يقول ، ولكن صدقه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شر انتقام وافظعه ، ورأيت من دخلت اليه امرأة من اولئك النساء المريبات تساله بعض المعونة على أمرها فأمر بطردها ذهابا بنفسه ان تسوء سمعته بدخولها بيته ، وكان هو الذي افسدها على نفسها فنزل بها فسادها الى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جد الجد حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته . ولم يحاسب نفسه على عرض كان ياكله في بيته أكلا . فكان بي منذ ذلك العهد ان انظر الى المرأة بعين غير العين التي ينظر بها الناس اليها ،

وان ألتمس لها من العذر ـ وان زلت بها قدم ـ ما لا يلتمسه لها احد ، وان انتصف لها من الرجل ما وجدت سبيلا الى ذلك حتى يديل لها الله منه ، وكنت من شئون عيشي في حالة لا استطيع معها ان اعتزل الناس الاعتزال كله ، ولا ان اختار لعشرتي من أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم على علاتهم فما حفظ لي صديق عهداً ولا صان لي صاحب سراً ، ولا استدنت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت فوفى لي مدين ، ولا رد لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كربتي مفرج الا اذا استقطر ماء وجهي الى القطرة الاخيرة منه ، ليأخذ اكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب ، ووجدت في طريق حياتي من خالطني مخالطة الزائر للمزور حتى امكنته الفرصة فسرق مالي بعد ما تحرم بطعامي وشرابي . ومن كان يبسط الي يد الآمل الراجي فاكره ان أرده خائباً ، فلما عجزت عن ذلك مرة اضمر لي في قلبه من الشر ما لا يضمر لمثله الرجل الا لمن يغلبه على تراث أبيه وأمه ، او يخضب لحيته من دم مفرقه ومن نصب[1] لي وغرى بمحاداتي ومماظتي[2] ، لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي له فيها سواي ، ومن اخذ نفسه بالنيل مني والغض من شاني لأنه كان يشكو الخمول والضعة وكان لا بد له ان يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له ان رأى عاتقي بين يديه فظن انه اعلى العواتق وابعدها مذهباً في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تحلحلت ولا نبوت به

(١) نصب فلان لفلان : عاداه .
(٢) المماظة : المخاصمة والمشارة .

بقياً عليه وضناً به ان يسقط سقطة لا يثل منها ، ومن كان لا يكبر شأني الا اذا اتقاني ، فاذا اضاء ما بيني وبينه كنت في عينه اصغر منه في عين نفسه ، ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر علي وإدباره عني ، لا يستحي ان يكرر ذلك حتى استحيي له منه . فعركت بجنبي [1] كل ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي ان انزل في الغرارة والسذاجة دون المنزلة التي ينزل اليها الغر الكريم ، فلم أثار لنفسي ، ولكن اصبح رأيي في الناس غير رأيهم في انفسهم ، ورأى بعضهم في بعض ، وخفت ان يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين [2] امثالي مثل ما اصابني ، فكان من همي ان أدل على شرور الاشرار الكامنة في نفوسهم وان اكشف الستر عن دخائل قلوبهم حتى يتراءوا ويتكاشفوا ، فيتواقعوا ويتحاجزوا ، فلا يهنأ خادع بخدعته ، ولا يبكي مخدوع على نكبته ، ولا يتخذ بعضهم بعضا حمراً يركبونها الى اغراضهم ومطامعهم ،وكان منشىء في قوم بداة سذج لا يبتغون بدينهم دينا ، ولا بوطنهم وطنا ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في الحياة شئون جمة ، فخضعت لكثير من احكام الدهر واقضيته ، الا ان اكون ملحداً في ديني او زاريا على وطني ، فاستطعت ــ وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدنية الغربية ــ ان اجلس ناحية منها . وان انظر اليها من مرقب عال ، وكنت اعلم ان من اعجز العجز ان ينظر الرجل الى الأمر نظرة طائرة حمقاء ، فإما اخذه كله او تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها ورذائلها ،

---

(١) عرك بجنبه ذنب صاحبه : احتمله . (٢) المحدود : المحروم ؛ ويراد به سيء الحظ.

وعرفت ما يجب ان ياخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي ان احمل الناس من امرها على ما احمل عليه نفسي ، وان انقم من هؤلاء العجزة الضعفاء وتهالكهم لها ، واستهتارهم بها ، وسقوطهم بين يدي رذائلها ومخازيها ، والحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرهها وحرصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى اصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه اذا حزبه الامر [1] في مناظرة بينه وبين من ياخذ برذيلة من من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضج به عن نفسه الا ان يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، او ترك ما ترك كانما هي القانون الإلهي الذي تثوب اليه العقول عند اختلاف الانظار واضطراب الافهام ، او القانون المنطقي الذي توزن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحيحها وفاسدها ؛ وحتى اصبح السيد في منزله يستحي الحياء كله من خادم غرفته الاوربية ان تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء وخلع الحذاء اكثر مما يستحي من الله ومن الناس ان يهجموا منه على ارذل الرذائل واكبر الكبائر ؛ وحتى اصبح طريق المشرق وتاريخ علمائه وادبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من اقبح الصور واسمجها في نظر كثير من الشرقيين : يفخرون بجهله ان جهلوه ، ويراؤون بعلمه ان علموه ، وحتى قدر الغلام الرومي ـ خادم الخان ـ منفرداً على ما لا تقدر عليه الامة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول اليه لتحدثه بلغته ، قبل ان تحمله على الصعود اليها ليحدثها

(١) حزبه الامر : اشتد عليه .

بلغتها ، وهو الى ان يترضاها ويستدنيها احوج منها الى ان تترضاه وتزدلف اليه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتثراً ههنا وههنا ، وقد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا اكذب الناس عن نفسي ، ولا اكذب نفسي عنها .

وعندي ان الكاتب المسخر الذي لا شأن له الا ان يكتب ما يفضي به الناس اليه صانع غير كاتب ، ومترجم غير قائل ، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ : كلاهما ينظم ما لا يملك ويتصرف فيما لا شأن له فيه ، على ان خير ما ينتفع به الاديب من أدبه ان يترك يوم وداعه هذه الدنيا صفحة يقرأ فيها الناظرون في تاريخه من بعده صورة نفسه ومضطرب آماله ومسرح احلامه ، فان كان من شأنه في حياته ان يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، او وفيعة [1] تتمسح بها اعواد الاقلام كان خسرانه عظيما لا يقوم به كل ما يربح الرابحون من مال او يؤثلون من جاه ، والتاريخ اضن من ان يحفظ بين دفتيه من مجد الادباء الا مجد اولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ثم يموتون وقد تركوها نقية بيضاء من بعدهم ، وحياة الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها ، ولا تحيا كتابة كاتب سيعلم الناس من أمره بعد قليل انه يكذبهم عن نفسه وعن نفوسهم وانه رواغ متخلج [2] يأمرهم اليوم بما ينهاهم عنه غدا ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وانه يستبكي ولا يبكي ،

(١) الوفيعة : خرقة يمسح بها القلم (٢) المتخلج : المضطرب في مشيته .

ويسترحم ولا يرحم ، ويحزن النفوس وهو ساكن ، ويثير الثائر وهو سالم ، فيستريبون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره شر حاليه ثم ينقطع ما بينهم وبينه ، والبيان ليس سلعة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق الى سوق ومن حانوت الى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها آثارها عفواً بلا تكلف ولا تعمل ، صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والاريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب اشراق المصباح في زجاجته ، وينبوع ثرار يتفجر في صدره ثم يفيض على اسلات قلمه ، وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو ان أمراً من ذلك كائن لكان ابرع الكتاب وأشعر الشعراء أغزرهم مادة في العلم ، او اعلمهم بقواعد اللغة ، او أجمعهم لمتونها ، او احفظهم لفصيح القول ورائعه ، أما العلم فاكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الاسفار التي نقرؤها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ما يتدافع في ذلك اثنان ، وها قد مرت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحقب واكثرنا عاجز عن فهم اكثر ما كانوا يكتبون ، وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ، ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ، ولا أقل منهم إلماماً بالادب ولا أبعد عنه مكاناً ، وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواتها وحفاظها والمتوفرين على تدوينها وتحقيقها والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها من عرفت له البراعة والتفوق في تحبير الرسائل او قرض الشعر او القوة

القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا انفسهم به ، وكان الخليل بن احمد اذا سئل عن نظم الشعر قال : يأباني جيده وآبي رديئه ، وكان الاصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو يزيد الانصاري يحفظ نصفها وأبو مالك الاعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والازهري والصاغاني وابن فارس وابن الاثير صاحب النهاية ،والجوهري والفيروزا بادي وامثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم في احدى الصناعتين شيئاً مذكوراً ، وقال ابو العباس المبرد في بعض احاديثه لا احتاج الى وصف نفسي : لعلم الناس بي انه ليس احد من الخافقين تختلج في نفسه مشكلة الا لقيني بها وأعدني لها ، فانا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفي علي مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل وربما احتجت الى اعتذار من فلتة او التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي اقصده نصب عيني ، ثم لا اجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني ان عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل فحاولت ان اكتب اليه رقعة أشكره فيها واعرض بعض اموري فأتعبت نفسي يوما في ذلك فلم اقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت احاول الافصاح عما في نفسي فينصرف لساني الى غيره اهـ . بل لو شئت لقلت انه ما افسد علي المتنبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا المعري كثيراً من منظمه ومنثوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصورته ، الا غلبة اللغة عليهم واستهتارهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون فقد كانوا هم وامثالهم من حبائس اللغة وانضائها في كثير من مواقفهم يؤلفون

ويدونون ، من حيث يظنون انهم ينظمون او يكتبون ، ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت كلما ذكرت ان الادب العربي كان يستطيع ان يكون خيراً مما كان لو ان الله تعالى كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام وانك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه ـ الذين يأخذون بزمام المجتمع العربي ويقيمون عاله ويقعدونه بقوتهم القلمية في شئونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة ـ من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، او من يسلم له مقال من مأخوذ نحوي او مغمز لغوي ، وهم على ذلك أدخل في باب البيان وألصق به وأمس رحماً من اولئك الذين يستظهرون متون اللغة ويحفظون دقائقها ويحيطون بترادفها ومتواردها ويتباصرون بشاذها وغريبها ويحملون في صدورهم ما دق وما جل من مسائل نحوها وتصريفها ، فاذا عرض لهم غرض من الاغراض في أي شان من شئون حياتهم وأرادوا انفسهم على الافضاء به ـ ارتج عليهم فاغلقو او تقعروا وتشدقوا فكأنهم لم ينطقوا ، والفرق بين الأدباء واللغويين ان الاولين كاتبون ، والآخرون مصححون ؛ فمثلها كمثل النساج وعامله : هذا ينسج الثوب ، وهذا يلتقط زوائده ويمسح زئبره [١] ، او كمثل الشاعر والعروضي : هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه ، وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق والانسجام والاطراد والرونق واستقامة

---

(١) الزئبر : ما يظهر من درز الثوب .

الغرض وتطبيق المفصل ، والاخذ بجامع الالباب ، امتلاك ازمة الهواء ؛ فاذا صح ذلك لامرىء فهو الكاتب القدير او الشاعر الجليل ، فان زلت به يده اصيل ، او كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة او بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لاحقاً بعلمه او بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته ، ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ، اصبح شانه شبيهاً بشان العرب الاولين ، وكان من شانهم ان يسبقهم في كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك كما يقول ابو علي الفارسي : انهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به؛ فربما استهواهم الشيء ، فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون ، وكما ان الجسم لا يغير من صورته ، ولا يبدل من سحنته ، ان تطير منه ذرة وتحل أخرى محلها لتمثلها ، كذلك لا يغير من صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج اصيل ، او دخول دخيل ، وقد قيل لأحد الكتاب الانكليز : نراك كثير الاعجاب بالكاتب « كبلنغ » وهو رجل الحانة لا يحفل بقواعد اللغة ، فاجاب : ان سطراً واحداً مما يكتبه « كبلنغ » أثمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأي ان احرم نفسي التمتع بادبه واكراماً لسواد عيون الغراماطيق [1] الانكليزي ، ففضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها افضل من فضل اللغويين عليها في ذلك ، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون [2] طرقها ويستدنون نافرها ،ويجمعون شاردها ، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك

(١) الغراماطيق : النحو .   (٢) يعبدون : يذللون ويمهدون .

فيأخذها الناس عنهم من اخصر الطرق واقربها ، واشهاها الى النفس ، واعلقها بالقلب ، وقليل من الناس من يأخذ مادته اللغوية من معاجم اللغة او يكتسب ملكة الاعراب من كتب النحو والتصريف ؛ وما كانت اللغة عدوة للأدب ولا كان عدواً لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به ، ولكن المشتغلين بها والمتوفرين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوائها لا يزال يتغلب عليهم الولع بها والفناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل ، وللبيان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل اليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسمية ، فكما ان الطفل لا ينمو جسمه ولا ينشط،ولا تتبسط اعضاؤه، ولا تنتشر القوة في اعصابه ، الا اذا نشأ في لهوه ولعبه وقذفه ووثبه ؛ كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه الا اذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون ان يسيطر عليه في ذلك مسيطر الا طبعه وسجيته،واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف والوساوس والبلابل، فان مشى خيل اليه انه يمشي على رملة ميثاء ، وان تحرك خيل اليه ان تحت قدميه حفرة جوفاء حتى يقعد به خوفه ووسواسه عن الغاية التي يريد الوصول اليها . على ان الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة الا اذا نظر الى الألفاظ بالعين التي يجب ان ينظر بها اليها فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي ان تكون خدماً لها وخولاً،

واوعية وظروفاً ، فاذا كتب تركها وشأنها واغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة ، والمعاني هي جوهر الكلام ولبه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى تفلت من يده فيفلت من يده كل شيء .

وبعد ، فالعلم والمحفوظات والمقروءات والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة ووسائله اليها ، فالجهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ، ومن لا يضطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة الى لسانه ، او غلبته العامية على أمره ، ومن قل محفوظه من المادة اللغوية ، قصرت يده عن تناول ما يريد تناوله من المعاني ، ومن جهل قانون اللغة أغمض الاغراض وابهمها ، او شوه الالفاظ وهجنها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ولا حقيقة البيان فاكثر القائمين عليها والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية احسان المحسن منهم ان يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الاعضاء مستوى الخلق ، إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له ، لأنه ينقصهم بعد ذلك كله أمر هو سر البيان ولبه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأنى لهم ذلك ، وما دخلت الفلسفة أياً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة الا أفسدته ، وما خلط التكلف عملا من أعمال الذوق الا شوه وجهه ، وذهب بحسنه ورواثه.

ولقد قرأت ما شئت من منثور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضيها قراءة المتثبت المستبصر ، فرأيت ان الاحاديث ثلاثة : حديث

اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب .

فأما حديث اللسان فهو في تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة، او تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية فإن كان لغوياً تقعر وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى يأتيك بشيء خير ما يصفه به الوصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب ،وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل ووسع وزاوج وافتن في الإتيان بالكلمة مهملة كلها او معجمة كلها او راوح بين الإهمال والإعجام ، فيخيل اليك وانت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعاً ، او يصففه تصفيفاً ، ثم لا يبالي بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما له من الاثر في نفس السامع ، وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأدناها واجدرها ان ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وان ينظم صاحبها في سلك جماعة المحللين الذين لا شأن لهم إلا تحليل المواد وتركيبها، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين اثقالها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ولا لذكاء القلب دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناحتون من أذهانهم نحتاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها مذهب المعاياة والتحدي والعمق والاغراب ، ويسمونها تارة تخييلا وأخرى غلواً وأخرى حسن تعليل ، الى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ، ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة ، وآية ما بينك وبينها : انك

اذا رأيتها شعرت بانك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك . وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعاً ، وان صاحبه لا يريد منه الا ان يطرفك او يضحكك او يعجبك من ذكائه وفطنته واقتداره على تصوير ما لا يتصور وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرك وأكدك وملأ قلبك غيظاً وقبحاً كان يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فان الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل ان يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأولون الى آدم وحواء ، والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخولا لأنفسهم ولو كانت كذلك لاستحال عليها — وهي من سكان السماء — ان تهبط الى الارض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله ان يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شانه ، فهو في الحقيقة إنما يريد ببيته هذا أن يتمدح نفسه بالابداع وقوة التخيل ، لا لن يتمدح ممدوحه برفعة الشان وعلو المقام .

او يقول :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فان الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع ،

مستعظما ان يخلفها ما عو دها إياه من طعام وشراب ، لا يمكن ان يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق احشاءهم ، ويقطع اوصالهم، ليملأ بها بطون الوحش ، ولا يوجد بين الاسباب التي تحمل الناس على القتال سبب يشبه هـذا السبب الذي ذكره ، عـلى ان المحسن لا يكون محسناً الا اذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيتـه ، فإما ان يقتـل الناس تقتيلا ويمثل بهم ، ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الارض وذئابها ، فذلك شيء هو بالجنون اشبه منه بالإحسان .

او يقول :

لا يـذوق الإغفـاء الا رجـاءً ان يرى طيف مستميح رواحا

فان النوم قوام الإنسان وعمـاد حياتـه ، ولازم من لوازمه اللاصقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ، فان كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فان من ابعد الاشياء عن التصور والفهم ان يكون ما يحمل الإنسان على طلب النوم رجاؤه ان يرى فيه الاحلام والرؤى ، فـان فعـل فعـلا يدخل في باب اغراضه وامانيه ان ينام ليرى خيال جماعة المتسولين والمتأكلين ، وهم ملء الارض وهباء الجو ، وارصاد الاعتاب ، واعقاب الابواب ، لا تفتح الاعين الا عليهم ولا تمتلىء الأنظار الا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضن بانفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به الا اذا ألقى في طريقه حبائل الاحلام ليصطاد بها .

او يقول :

لم يتخـذ ولداً الا مبـالغـة في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

فإن الاولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاماً ، واكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هي ثمرات الحب يأتي بها عفواً ، لا نبتة من نبات الارض يبذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني بربوبيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فان كان لا بد في إثبات ربوبيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والافعال ، فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة . وربما كان أهونها واضعفها انه لا يتخذ ولداً ، وانهم يتخذون . على ان المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الارض وظهرها ، فالمسألة مفروغ منها قبل ان يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ، فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد.

او يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الترب طيباً

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورممهم لا يمكن ان تكون طيبة الريح ، على ان الأزهار مريحة قبل ان يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على ان أتى بخيال ضعيف مبتذل هو اشبه الاشياء بخيال العامة الذين يرون ان بعض الأزهار ما خلق الا اكراما لبعض النبيين .

او يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي الـ ساعة ما تجتنيه في سنتك

فقد اراد ان يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق ما يصف الناس

ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره ، فانزله منزلة مجانين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين دخلهم ونفقاتهم ، ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة الى قاض من قضاة المال لما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاق دخل السنة جميعها في ساعة واحدة او يوم واحد .

او يقول :

ولما ضاق بطن الارض عن ان   يضم علاك من بعد المهات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا   عن الاكفان ثوب السافيات

فإن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالقبر لا يضيق باحد ، والجو لا يكون قبراً ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن .

واما حديث القلب فهو ذلك المنثور او المنظوم الذي تسمعه فتشعر ان صاحبه قد جلس الى جانبك ليتحدث اليك كما يتحدث الجليس الى جليسه، او ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون، او سرائر القلوب ، او ليفضي اليك بغرض من اغراض نفسه ، او لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، او ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج في صدرك ، ثم يتكاءدك الإفصاح عنها من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا للفلسفة الذهنية دخل في هذا او ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفني كما تفني الكأس الصافية دون ما تشمل عليه من الخمر ، فاذا الخمر قائمة بغير إناء ، او كما

تفني صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى الا صورته ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج ، وهو ارقى الاحاديث الثلاثة واشرفها ، وهل الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت اساليبهم من كلمة البيان .

ولقد كان من اكبر ما اعانني على امري في كتابة تلك الكلمات اشياء اربعة انا ذاكرها ، لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه .

(اولها) اني ما كنت احفل من بين تلك الاحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، اي انني ما كدت اتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا افتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي ، بل كنت احدث الناس بقلمي كما احدثهم بلساني ، فاذا جلست الى منضدتي خيل إلي ان بين يدي رجلاً من عامة النـاس مقبلاً علي بوجهه ، وأن من ألذ الاشياء وأشهاها الى نفسي ان لا أترك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به اليه ، فلا أزال اتلمس الحيلة الى ذلك ولا أزال أتاتى اليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحـاح المشفق الجد ، حتى اظن أني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيـد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في اوله ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزامـاً مطرداً إبقاء على نشاطه وإجماحه ، وإشفاقاً عليه ان يمل ويسأم ، فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به .

(وثانيها) اني ما كنت أحمل نفسي على الكتـابة حملاً ، ولا أجلس

الى منضدتي مطرقاً مفكراً : ماذا اكتب اليوم ، وأي الموضوعات أعجب وأغرب وألذ وأشوق ، وأيها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ؟ بل كنت ارى فأفكر فاكتب فأنشر ما اكتب فارضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا اتعمد سخطهم ولا أتطلب رضاهم .

(وثالثها) أني ما كنت اكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيال غير مرتكز على حقيقة ، لأني كنت أعلم ان الحقيقة المجردة عن الخيال لا تاخذ من نفس السامع ماخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً ، وأحسب ان السبب في ذلك ان اكثر ما يشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب والآراء والاخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو اثر من آثار الخيالات الذهبية التي تتراءى في سماء الفكر ثم لا تزال بها الايام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان ، وكما ان الحديد لا يفل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره . كذلك الخيال لا يذهب ولا يزعجه من مكانه الا الخيال ، وللخيال الأثر الاعظم في تكوين هذا المجتمع الانساني وتكييفه على الصورة التي يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم ان الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ولا تصعد الى سماء .

(ورابعها) أني كنت اكتب للناس لأعجبهم ، بل لانفعهم ، ولا

لاسمع منهم : انت احسنت، بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت ، وللناس كما قلت في بعض رسائلي ، خاصة وعامة ، أما خاصتهم فلا شأن لي معهم، ولا علاقة لي بهم ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم فلا أفرح برضاهم ولا اجزع لسخطهم ، لأني لم اكتب لهم ، ولم اتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي، بل أنا أتجنب جهد المستطاع ان استمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ، لأني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي اكتب بها ، فلا احب ان يكدرها علي مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلي فلا احب ان يشككني فيها مشكك ، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما استطيع به ان أميز بين مخلصهم ومشوبهم . فأصغي الى الاول لاستفيد علمه ، واعرض عن الثاني لاتقي غشه ، فانا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له ان يفرغ منها في ساعة معينة . ثم علم ان على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتنق اغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزأر أسوده وتعوي ذئابه وتفح أفاعيه وصلاله،فمضى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة ان يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة ان يهيج بنظراته فضول تلك السباع المقعية ، والصلال الناشرة ، فتعترض طريقه . وأما عامتهم ، فهم بين ذكي قد وهبه الله من سلامة الفطرة ، وصفاء القلب، وسلاسة الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع احسنه ،فانا احمد الله في أمره ، وضعيف قد خيل بينه وبين نفسه ، فهو لا يرضى الا عما يعجبه ، ولا يسمع الا ما يطربه ، فاكل أمره الى الله تعالى ، واستلهمه صواب الرأي فيه حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً ؟

مصطفى لطفي المنفلوطي

الغد

عرفت اني فكرت ليلة أمس فيما اكتب اليوم ، وعرفت اني آخذ الساعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يدي صحيفة بيضاء تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه او يكبو[1] دون غايته؟ وهل استطيع ان اتم رسالتي هذه،او يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ؟ لاني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولان المستقبل بيد الله .

عرفت اني لبست اثوابي في الصباح ، واني لا ازال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا اعلم هل اخلعها بيدي أو تخلعها يد الغاسل ؟

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء إذا هبت عليها ريح باردة حللت أجزاءها ، وبعثرت ذراتها ، فاصبحت كأنما هي

(١) كبا : سقط على وجهه .

عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خضم زاخر يعب عبابه[1] وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، او الموت الاحمر .

لقد غمض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن إنسانا رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره ، لا يدري أيضعها على عتبة القصر أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوء بالاسرار الغزار ، تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه[2] العقول ، وتستدرجه الانظار ، فلا يبوح بسر من اسراره ، الا اذا جاءت الصخرة بالماء الزلال .

كأني بالغد وهو كامن في مكمنه ، رابض في مجثمه[3] . متلفع بفضل إزاره ، ينظر الى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني انه يبني للخراب ، وهذا الوالد انه يلد للموت : ما جمع الجامع ولا بنى الباني ولا ولد الوالد .

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نفقا في الارض ، وصعد في سلم الى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[4] من حديد ، وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله الى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه ،

---

(١) يعب عبابه : يرتفع موجه .
(٢) تسقط الخبر : أخذه شيئا فشيئا .
(٣) مجثم الطائر : موضع جثومه ، أي تلبده بالأرض .
(٤) الاسباب : الحبال ، وكل ما يوصل بين الشيئين .

وعرف أغوارها وأنجادها . وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ، ورطبها ويابسها. ووضع المقاييس لمعرفة ابعاد النجوم ومسافات الاشعة. والموازين لوزن كرة الارض إجمالاً وتفصيلا . وغاص في البحار فعرف اعماقها ، وفحص تربتها وازعج سكانها ، ونبش دفائنها وسلبها كنوزها ، وغلبها على لآلئها وجواهرها،ونفذ من بين الاحجار والآكام الى القرون الخالية فرأى اصحابها وعرف كيف يعيشون واين يسكنون ، وماذا ياكلون ويشربون ، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة الى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحداً .

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك ان ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة[1] واحدة من صفحات وجهك المقنع ، او لا ، فاقترب منا قليلاً علنا نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً اليك ، وذابت اكبادنا وجداً عليك .

ايها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً، وأماني حساناً وغير حسان، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؛

(١) صفحة الشيء : جانبه .

أأذللتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين ؟

لا ، لا صن سرك في صدرك ، وابق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وامانينا ، حتى لا تفجعنا في ارواحنا ونفوسنا فـإنما نحن احياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأماني وان كانت كاذبة .

وليست حياة المرء إلا امانيـا   إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

الكأس الاولى

كان لي صديق احبه واحب منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه ، وغضبه وحلمه وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فانا اليوم ابكيه حياً اكثر مما كنت ابكيه لو كان ميتاً ، بل انا لا ابكي إلا حياته ، ولا اتمنى إلا مماته ، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلة الغريبة في طبائع النفوس !

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني ، ثم سلك سبيلا غير سبيله فانكرته وانكرني ، حتى ما امر بباله، لأن الكاس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني في مخيلته دفعاً إذا تراءيت فيها لأنه اذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرة التي كنت القاه بها في فاتحة حياته الجديدة، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيلها ان يكدر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال .

ثم لم أعد اعلم من امره بعدذلك شيئاً،لأن حياة المدمنين حياة متشابهة

متماثلة ، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها ؛ ذهاب الى الحانات فشراب ، فخمار [1] فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة ، لا يدري اين طرفاها ؛ والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن ، حتى ان بعض من ينام على دورة الرحى يستيقظ عند سكونها ، وكان أحرى ان يوقظه دورانها .

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي الا بعد ان سكنت دورته ، وهدأت حركته ، فلم اعد أراه معربداً في الحانات ، ولا مطرحاً في مدراج الطرق ، ولا معتقلا في أيدي الشرط [2] . هناك سالت عنه فقيل لي : مريض ، فلم اعجب لشيء كنت اعد له الايام والاعوام ، كما يعد الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب .

دخلت عليه اعوده فلم اجد عنده طبيباً ولا عائداً ، لانه فقير ؛ والاطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبطنون حب الصفراء والبيضاء ؛ والاصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير .

دخلت منزله فلم اجد المنزل ولا صاحبه ،لاني لم اجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف باجنحته في غرفه وقاعاته ،ولم أر دخان المطبخ؛ ولم اسمع ضوضاء الخدم ، ولا بكاء اطفال ؛ ولا رنين الاجراس ؛ فكانني دخلت القبر ازور الميت ، لا المنزل اعود الحي .

---

(١) الخمار : صداع الشراب .
(٢) الشرط : اعوان الأمير ، ومفرده « شرطي » بضم الشين وسكون الراء .

ثم تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منـه الا إهاب [1] لاصق بعظم ناحـل ، فقلت : أيهـا الخيـال الشاخص ببصره الى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك ان تدلني عليه ؟ فبعد لأي ما [2] حرك شفتيه وقال : هل اسمع صوت فلان ؟ قلت : نعم ، مم تشكو ؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها اضلاعه واجاب : اشكو الكاس الاولى ، قلت : أي كاس تريد ؟ قال : اريـد الكاس الـتي اودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي ، وها أنا ذا اليوم اودعها حياتي ؛ قلت : قد كنت نصحتك ووعظتك ، وانذرتك بهذا المصير الذي صرت اليه فما اجديت عليك شيئاً ، قـال : مـا كنت تعـلم حـين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد اكثر مما اعلم ، ولكنني كنت شربت الكاس الاولى فخرج الامر من يدي .

كل كاس شربتها جنتها علي الكاس الاولى ، أما هي فلم يجنها عـلي غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الاصدقاء والخلطاء .

لم تكن شهوة الشراب مركبة في الإنسان كبقية الشهوات فيعذر في الانقياد اليها كما يعذر في الانقياد الى غيرها من الشهوات الغريزية ؛ فـلا سلطان لها عليه الا بعد ان يتناول الكاس الاولى . فلم يتناولها ؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبـين من خلانـه وعشرائه خدعوه عن نفسه في أمرهـا ليستكملوا بانضمامه اليهم لذتهم التي لا تتم الا بقراع الكئوس وضوضاء الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه

---

(١) الإهاب : الجلد . (٢) يقال « فعله بعد لأي » أي إبطاء ، و « ما » زائدة .

وأي ذريعة تذرعوا بها الى ذلك، لتحققت انه ابله الى النهاية من البلاهة، وضعيف الى الغاية التي ليس وراءها غاية .

أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف ، فاسمع كيف خدعني الأصدقاء ، وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان .

قالوا : ان حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه الأدواء الا الشراب ، وقالوا : ان الشراب يزيد في رونق الجسم ، ويبعث نشاطه ، وإنه يفتق اللسان ويعلم الإنسان البيان ، وانه يشجع الجبان ، ويبعث في القلب الجرأة والإقدام ، هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به .

صدقت ان في الشراب أربع مزايا : السعادة، والصحة ، والفصاحة، والإقدام ، فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر ، والمرض ، والسقوط ، والجنون .

غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر ، الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء . وهو يتغلغل في الأحشاء ، ومن الفصاحة الهذر والهذيان ، وهجر [1] القول وبذاءة اللسان ، ومن الإقدام العربدة التي لا تسكن الا في غرفة السجن ، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الاشياء كما هي ، فتنعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة [2] والصفع تحية ، فيضحكه من

(١) الهجر : الفحش . (٢) الطرفة : الملحة المستحسنة .

ذلك ما يضحك الاطفال والممرورين [1]

أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام ثغراً من ثغور ساكنيه ؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه في مسائه بالزفرات ؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه متلوياً متخلجاً [2] يتسرب في المنعطفات والازقة ، ويعوذ بألواذ [3] الجدر والاسوار فراراً من نظرات الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار .

ولقد كنت أرى هؤلاء الاشقياء في فاتحة حياتي التعسة فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي من انهم قتلى الادمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدر لنفسي القصد فيه ان لي قدرلي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم ، ولا أنزل منزلتهم ، فلما شربت أخطأ العد ، وضاع الحساب ، وفسد التدبير ، واختلف التقدير ، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به ؛ ولولا الكاس الاولى ما هلكت ، ولا شكوت الذي شكوت ، ولولاها ما عافني الاصدقاء ، ولا زهد في الاقرباء، فكن انت وحدك صديق السراء والضراء .

فعاهدته على ذلك ، ثم تركته في حالة :

تصم السميع وتعمى البصير ... ويسأل من مثلها العافية

(١) الممرور : الذي هاجت مرته ، ويطلق على الجنون . (٢) متخلجاً : متثنياً
(٣) لوذ الجبل : جانبه ، والجمع : ألواذ .

الدفين الصغير

الآن نفضت يدي من تراب قبرك يا بني ، وعدت الى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك الا دمعة لا أستطيع إرسالها ، وزفرة لا استطيع تصعيدها .

ذلك لان الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك فرزقني بك قبل ان أساله اياك ، ثم استلبنيك قبل ان استعفيه منك ، قد أراد ان يتمم قضاءه في ، وان يجرعني الكاس حتى ثمالتها ، فحرمني حتى دمعة أرسلها او زفرة اصعدها ، حتى لا اجد في هذه ولا تلك ما أتفرج به مما أنا فيه ، فله الحمد راضياً وغاضباً ، وله الثناء منعماً وسالباً ، وله مني ما يشاء من الرضا بقضائه والصبر على بلائه .

رأيتك يا بني في فراشك عليلا فجزعت . ثم خفت عليك الموت ففزعت وكانما كان يخيل الي ان الموت والحياة شان من شئون الناس وعمل من الاعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب

لي الدواء ، ووعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك اصب في فمك ذلك السائل الاصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من جنبيك الحياة قطعة قطعة ، حتى نظرت فإذا انت بين يدي جثة باردة لا حراك بها واذا قارورة الدواء لا تزال في يدي . فعلمت أني قد ثكلتك ! وان الامر امر القضاء ، لا امر الدواء .

سأنام يا بني بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك ، واحسب ان آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شئون الحياة واطوارها ، وخطوبها واحداثها : هو الندم العظيم الذي لا ازال أكابد ألمه على تلك الجرع المريرة التي كنت اجرعك اياها بيدي وانت تجود بنفسك ، فيربد وجهك ، وتختلج اعضاؤك ، وتدمع عيناك ، وما لك يد فتستطيع ان تمدها الي لتدفعني عنك ، ولا لسان فتستطيع ان تشكو الي مرارة ما تذوق .

لقد كان خيراً لي ولك يا بني ان أكل الى الله أمرك في شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي اجشمك اياها ، فلقد اصبحت اعتقد انني كنت عوناً للقضاء عليك وان كاس المنية التي كان يحملها لك القدر في يده لم تكن أمر مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت احملها لك في يدي.

ما اسمج وجه الحياة من بعدك يا بني ! وما اقبح صورة هذه الكائنات في نظري ! وما اشد ظلمة البيت الذي اسكنه بعد فراقك اياه ! فلقد كنت تطلع في ارجائه شمساً مشرقة تضيء لي كل شيء فيه ، اما

اليوم فلا ترى عيني مما حولي اكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك .

بكى الباكون والباكيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى اذا استنفدوا ماء شئونهم ، وضعفت قواهم عن احتمال اكثر مما احتملوا ، لجأوا الى مضاجعهم فسكنوا اليها ، ولم يبق ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عينين قريحتين : عين أبيك الثاكل المسكين ، وعين أخرى انت تعلمها .

لقد طال علي الليل حتى مللته ، ولكنني لا أسأل الله ان ينفرج لي سواده عن بياض النهار ، لأن الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باق حتى أرى وجه النهار ، بل ليت النهار يأتي ، فقد مللت هذا الظلام .

دفنتك اليوم يا بني ودفنت أخاك من قبلك ، ودفنت من قبلكما خويكما فانا في كل يوم استقبل زائراً جديداً ، واودع ضيفاً راحلا .. فيالله لقلب قد لاقى فوق ما تلاقي القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من فوادح الخطوب .

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فاصبحت هذه الكبد الحرفاء مزقاً مبعثرة في زوايا القبور ، ولم يبق لي منها الا دماء قليل لا احسبه باقياً على الدهر ، ولا احسب الدهر تاركه دون ان يذهب به كما ذهب باخواته من قبل .

لماذا ذهبتم يا بني بعد ما جئتم ؟ ولماذا جئتم ان كنتم تعلمون انكم لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما اسفت خلو يدي منكم ، لأنني ما تعودت ان تمتد عيني الى ما ليس في يدي ، ولو انكم بقيتم بعد ما جئتم مـا تجرعت هذه الكاس المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم ان يتزحزح لي عن طريقي التي اسير فيها ، وان يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني ، ولا يحسن اليّ ولا يسيء ولا يتقدم اليّ بخير ولا شر ، ولا يتراءى لي مبتسما ، ولا مقطبا ، ولا ضاحكاً ، ولا باكياً ، لو انه رضي مني بذلك ، ولكنه كان أذكى قلباً ، وانفذ بصراً ، من ان يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يدي ، ومـا كنت اجد مرارة فقدانها لو لم أذق حلاوة وجدانها ، وكان لا بد له ان يجري في سنة الشقاء التي اخذ على نفسه ان يجريها في الناس جميعـاً ، فلما عجز عن ان يدخل الي من باب الطمع ، دخل الي من باب الأمل ، فهو يمنحني المنحة فاغتبط بها حقبة من الدهر ، حتى اذا علم ان بذرة الأمل التي غرسها قد نمت وازدهرت وانني قد استعذبت طعمها واستطبت مذاقها ، كر علي فانتزعها من يدي انعم ما اكون بها ، كما تنزع الكاس الباردة من يد الظامىء الهيمان ، ليعظم وقع السهم في كبدي ، ويفدح سلب النعمة من يدي ، ولولا ذلك ما نال مني منالاً ، ولا وجد اليّ سبيلا .

يا بني ، ان قدر الله لكم ان تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، او على شاطىء غدير من غدرانها ، او تحت ظلال قصر من قصورها فاذكروني مثل ما اذكركم ، وقفوا بين يدي ربكم صفاً واحداً كما يقف بين

يديه المصلون ومدوا اليه اكفكم الصغيرة كما يمدها السائلون ، وقولوا له : اللهم انك تعلم ان هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت الايام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به ، والحنين اليه ، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعم بها في جوارك بين سمعك وبصرك ، وانت أرحم بنا وبه من ان تعذبنا عذاباً كثيراً ، فإما ان تاخذنا اليه او تاتي به الينا .. لا ، بل لا تطلبوا منه الا ان ياتي بي اليكم . فإن الحياة التي كرهتها لنفسي لا أرضاها لكم ، فعسى ان يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي كما كنا

مناجاة القمر

أيها الكوكب المطل من عليــاء سمائه . أأنت عروس حسناء تشرف من نافذة قصرها ، وهـذه النجوم المبعثرة حواليك قلائد من جمـان ؟ أم ملك عظيم جالس فوق عرشه ، وهـذه النيرات حور وولدان ؟ أم فص من ماس ما يتلألأ ، وهذا الافق المحيط بك خاتم من الانوار ؟ أم مرآة صافيـة ، وهـذه الهالة الدائرة بك إطار ، أم عـين ثرة ثجاجة ؟ وهـذه الاشعة جداول تتدفق ؟او تنور مسجور ، وهذه الكواكب شرر يتالق؟!

أيها القمر المنير :

إنك أنرت الارض : وهادها ونجادها ، وسهلها ووعرها ، وعامرها وغامرها ، فهل لك ان تشرق في نفسي فتنير ظلمتها ، وتبدد ما اظلها من سحب الهموم والاحزان ؟

أيها القمر المنير :

ان بيني وبينك شبهاً واتصالاً ، انت وحيد في سمائك ، وأنا وحيد

في ارضي كلانا يقطع شوطه صامتاً هادئاً منكسراً حزيناً ، لا يلوي على احد ولا يلوي احـد عليه ، وكلانا يبرز للآخر في ظلمـة الليـل فيسايره ويناجيه ، يراني الرائي فيحسبني سعيداً ، لأنه يغتر بابتسامة في ثغري ، وطلاقة في وجهي ، ولو كشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليـه من الهمـوم والاحزان لبكى لي بـكاء الحزين إثر الحزين ، ويراك الرائي فيحسبك مغتبطاً مسروراً ، لأنه يغـتر بجمال وجهك ولمعـان جبينك ، وصفاء أديمك ، ولو كشف له عن عالمك لرآه عالماً خراباً ، وكوناً يباباً ، لا تهب فيه ريح ولا يتحرك شجر ، ولا ينطق إنسان ، ولا يبغم حيوان.

أيها القمر المنير

كان لي حبيب يملأ نفسي نوراً ، وقلبي لذة وسروراً ، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك ، وقد فرق الدهر بيني وبينه، فهل لك أن تحدثني عنه ، وتكشف لي عن مكان وجوده ؟ فربما كان ينظر إليك نظري ، ويناجيك مناجاتي ، ويرجوك رجائي .

وهانذا يخيل إلي أني أرى صورته في مرآتك ، وكأني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ، فازداد شوقاً إليه ، وحزناً عليه .. فابق في مكانك طويلاً تطل وقفتنا ، ويدوم اجتماعنا •

أيها القمر المنير :

مالي أراك تنحدر قليلا قليلا الى مغربك كأنك تريد ان تفارقني ،

ومالي أرى نورك الساطع قد أخذ في الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هذا السيف المسلول، الذي يلمع من جانب الافق على رأسك ؟

قف قليلا ، لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني وحيداً ، فإني لا أعرف غيرك ، ولا آنس بمخلوق سواك .

آه ، لقد طلع الفجر ، ففارقني مؤنسي، وارتحل عني صديقي، فمتى تنقضي وحشة النهار ، ويقبل إلي أنس الظلام !!

أين الفضيلة

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته ، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر ، فلما استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فاحبها حباً ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب : فانشأ يفتش عنها بين سمع الارض وبصرها أعواماً طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه ، لا فرق بيني وبينه الا انه يسمي ضالته الفتاة وأسميها الفضيلة ، وأنه فتش عنها فوجدها ، وفتشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت اليها سبيلا •

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت التاجر لصاً في أثواب بائع وجدته يبيعني بدينارين ما ثمنه دينار واحد ، فعلمت انه سارق للدينار الثاني ، ولو وكل الي أمر القضاء ما هان علي أن أعاقب لصوص

الدراهم ، وأغفل لصوص الدنانير ، ما دام كل منهما يسلبني مالي ويتغفلني عنـه •

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ، ولكني أنكر عليه أن يتناول منـه أكثر من الجزاء الذي يستحقه على مـا بذل من جهد في جلب السلعة ومـا أنفق من راحته في سبيل صونها واحرازها، وكل ما أعرف من الفرق بين حلال المـال وحرامه : أن الأول بدل الجد والعمل والثاني بدل الغش والكذب •

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء فرأيت أن أعـدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه اياه، أما انصاف المظلوم والضرب على يد الظالم • وأراحة[1] الحقوق على اهلها وانزال العقوبات منازلها من الذنوب: فهي عنده ذيول وأذناب لا يأبه[2] لهـا ، ولا يحتفل بشأنها الا اذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مـع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً، فإذا اختلف طريقاهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ونطق بغير مـا يعلم ، ودان البريء وبرأ المجرم ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرته اليه حـكم القانون عليه • كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، ومـا القانون الا حسنة من حسنات العقل وصنيعة من صنائعه •

فتشت عـن الفضيلة في قصور الاغنياء فرأيت الغنى امـا شحيحاً أو

(١) أراح الحق على اهله : أعاده اليهم . (٢) أبه للشيء : تفطن له واحتفل .

متلافاً ، امـا الاول فلو كان جاراً لبيت فاطمة رضي الله عنها وسمع في جوف الليل انينها وانين ولديها من الجوع ما مد اصبعيه الى اذنيه ثقة منه انقلبه المتحجر لا تنفذه اشعة الرحمة،ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان، واما الثاني : فماله بين الثغرين : ثغر الحسناء ، وثغر الصهباء •• فعلى يد اي رجل من الرجلين تدخل الفضيلة قصور الاغنياء ؟

فتشت عنها في مجالس السياسة ، فرأيت ان المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط : الفاظ مترادفة معناهـا الكذب ، فرأيت ان الملك في كرسي مملكته كالحوذي في كرسي عربتـه ، لا فرق بينهما الا ان هـذا ينقض (تعريفته) ، وذاك ينقض معاهدته ، ورأيت ان أعدى عـدو للإنسان الإنسان ، وان كل امة قـد اعدت في مخازنها ومستودعـاتها وفي بطون قلاعها وعـلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها مـا شـاء الله ان تعده لاختها من الموت وافانين العذاب حتى اذا وقع الختف بينهما على حد من الحدود او جدار من الجدران ، لبس الإنسان فروة السبع واتخـذ له مـن تلك العـدد الوحشية اظفاراً كاظفاره وأنيابـاً كانيابه ، فشحذ الاولى وكشر عن الاخرى ثم هجم عـلى ولد ابيه وأمه هجمـة لا يعود منها الا بنفسه التي بين جنبيه، وإنك لو سالت الجنديين المتقاتلين ما خطبكما وما شانكما ؟ وعلام تقتتلان ؟ وما هذه الموجدة التي تحملانها بين جنبيكما ؟ ومتى ابتدأت الخصومـة بينكما ، وعهدي بكما ما أنكما ما تعارفتما الا في الساعة الـتي اقتتلتما فيهـا ؟ لعرفت انهما مخدوعان عن تقسيهما ، وأنهما مـا خرجا من ديارهما ليضعا درة في تاج الملك ، او نيشاناً على صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين فرأيتهم ـ الا من رحم الله ـ يتجرون بالعقول في اسواق الجهل ، ورأيت كلا منهم قد ثغر له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها الى الاخلاق فيفسدها، والمشاعر فيقتلها، ليتوسل بذلك الى الذخائر فيسرقها ، والخزائن فيسلبها .

فتشت عنها في كل مكان اعلم انه تربتها وموطنها فلم اعثر بها ، فليت شعري هل اجدها في الحانات والمواخير ، او في مغارات اللصوص ، او بين جدران السجون .

سيقول كثير من الناس : قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره ، فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدراً رحباً ، وموردآ عذباً ، وإني قائل لهم قبل ان يقولوا كلمتهم : إني لا انكر وجود الفضيلة ، ولكني اجهل مكانها ، فقد عقد رياء الناس امام عيني سحابة سوداء اظلم لها بصري ، حتى ما اجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ، ولا كوكباً طالعاً .

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها ، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها من منظر يستهوي الاذكياء والاغنياء ، ومظهر يخدع اسوأ الناس بالناس ظناً ، فمن لي بالوصول اليها في هذا الظلام الحالك ، والليل الأليل ؟

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ، فسعادتي فيها ان اعثر في طريقي في يوم من ايام حياتي بصديق يصدقني الود واصدقه ، فيقنعه مني ودي وإخلاصي دون ان يتجاوز ذلك الى ما وراءه من مآرب واغراض ، وأن يكون شريف

النفس فلا يطمع في غير مطمع ، شريف القلب ، فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً. ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره، شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ، ولا يلم بعرض ولا ينطق بهجر[1] شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ، ولا يبغض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي اتمناها ولكنني لا اراها .

إني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها ، وترن اطيارها ، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وازهارها ، انسياب الافاعي الرقطاء ، في الرمال البيضاء ، وأرى انامل النسائم تعبث بنثورها الاوراق ، عبث الهوى بالباب العشاق ، واسمع ما بين صفير البلابل ، وخرير الجداول نغمات شجية تبلغ من نفس الإنسان، ما لا تبلغ اوتار العيدان، فلا يسرني منها منظر ، ولا يطربني مسمع ؛ لأني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي انشدها .

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني ، وثقل حديثها في مسمعي ، حتى اصبحت اتمنى ان اعيش بلا قلب فلا اشعر بخير الحياة وشرها وسرورها وحزنها .

ولولا بنيات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق الى ذلك العالم الصامت ، فأجد من الأنس به والسكون اليه ما وجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت اطير

---

(١) الهجر : الفحش .

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً ، فرثيت لحاله وسألته : ما باله ؟ فشكا الي الجوع ، ففثأته [1] عنه ببعض ما قدرت عليه ، ثم تركته وذهبت الى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة ، فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه ، وانه يشكو من الالم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسألته عما به فشكا إلي البطنة، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألماً .

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ، ويطفىء غلته ، ولكنه كان محباً لنفسه ، مغالياً بها ، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة ، حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه. وهكذا يصدق المثل القائل: بطنة الغني انتقام لجوع الفقير .

(١) يقال : فثأت فلاناً عن فلان، إذا سكنت غيظه عليه .

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحت الارض بنباتها ، ولكن حسد القوي الضعيف عليها فزواها[1] واحتجنها[2] دونه ، فاصبح فقيراً معدماً ، شاكياً متظلماً ، غرماؤه المياسير الاغنياء ، لا الارض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس. فاستطيع ان اتصور كما يتصورون ، حجة الاقوياء في أنهم أحق بإحراز المال ، واولى بامتلاكه من الضعفاء ؛ إن كانت القوة حجتهم عليه ، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب اموالهم ؟ وما الحياة في نظر الحي بـأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم : إن كانت الابوة علة الميراث فلم ورثتم آباؤكم في اموالهم ولم ترثوهم مظالمهم ؟ فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقاً عليهم ان يردوا اليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لا بد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال الى أربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الاقوياء من بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم ، ينام احدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ، ولا يقلقه في مضجعه انه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد برداً وقراً ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده وشواءه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه . أن بين أقربائه وذوي رحمة من تتواثب أحشاؤه شوقاً الى فتاة تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها . بل ان بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء

---

(١) زوى عنه حقه : منعه اياه .

(٢) احتجن الشيء : اذا جذبه بالمحجن الى نفسه ؛ والمحجن الصولجان ، والمراد انه استأثر به.

لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد مـا تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الاثاث والريش ، ليكسر قلبه وينغص عليـه عيشه ويبغض اليه حيـاته وكانه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته : أنا سعيد لاني غني ، وانت شقي لانك فقير .

أحسب لولا أن الاقويـاء في حـاجة إلى الضعفـاء يستخدمونهم في مرافقهم وحـاجاتهم كما يستخدمون أدوات مـنازلهم ، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم،ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين ايديهم ، لامتصوا دمـاءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا استطيع ان أتصور ان الانسان انسان حتى أراه محسنـاً ، لاني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الانسان والحيوان الا الاحسان ، واني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن الى غيره ليتخذ احسانه اليه سبيلاً الى الاحسان الى نفسه ، وهو المستبد الجبـار الذي لا يفهم من الاحسان الا انه يستعبد الانسان ، ورجل يحسن الى نفسه ولا يحسن الى غيره وهو الشره المتكالب الذي لو علم ان الدم السائل يستحيل الى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً ، ورجل لا يحسـن الى نفسه ولا الى غيره وهو البخيل الاحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه ، وأما الرابع : وهو الذي يحسن الى غيره ، ويحسن الى نفسه ، فلا أعلم له مكاناً ، ولا اجد اليه سبيلاً ، واحسب انه هو الذي كان يفتش عنـه الفيلسوف اليوناني « ديوجين الكلبي » حينـما سئل : مـا يصنع بمصبـاحه ؟ وكان يدور به في بياض النهـار ، فقال : « افتش عن انسان »

مدينة السعادة

رأيت فيما يرى النائم أنني امشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعد الامواج المتكسرة على سطح القاموس[1] المحيط وكانت الشمس قد طفلت[2] للإياب فلم أر في بطحائها ظلا غير ظلى المستطيل الذي رسمته يد الشمس فاخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر[3] فاوسعتني طولا ورسمتني ميلا .

أنشات أمشي لا اعرف لي مذهبا ولا مضطربا ، وانى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها . وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها حتى انحدرت الشمس الى مستقرها : وطار طائر الليل من مكمنه . ونشر الظلام اجنحته السوداء في الافق حتى وجدتني احير من دمعة وجد في مقلة عاشق ؛ يدفعها الحب ويمنعها الحياء ، ولا اعلم هل

---

(١) القاموس : وسط البحر ومعظمه . (٢) طفلت الشمس : احمرت للغروب .

(٣) وربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة، ولكن التشبيه بحسب الخيال الذهني على حد قوله تعالى (كأنه رؤوس الشياطين) .

أنا سر كامن في بـاطن الظلمـاء ، او حوت مضطرب في اعمـاق المـاء .
وأحياناً كان يخيل الي اني في منجم من منـاجم الفحم فأمـد يدي أتلمس جدرانه مخافة ان اصطدم بواحد منها ، ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام قد بدا ينفض صبغته . وان ذراته تتطاير ههنا وههنا ، فإذا انابين يدي جبل عال كانما هو جدار قائم يمسك السماء ان تقع على الارض ، او ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الاحمر ، ومن شعاعهـا الرداء الاصفر .

ولا تسل هنالك عما ألم بقلبي من الهم وعقلي من الخيال ، حينما رأيت ان صعود السماء اقرب الى الامـل ، من صعود هذا الجبـل ، وحرت بين الاقدام والاحجام ، فلم ار بدمن الاستسلام لمقدور الحمام،ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضـاء ناعمة الملمس ، فاضطجعت عليها وانا اتمثل بقول ابي العلاء ،

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مثل السهاد

ومـا هي إلا غمضة الطرف ان اشعرت بانها تتحرك قليلاً قليلا ، ثم استقلت ثم طارت ، فكدت احسب انه الموت قد نزل،وانها الروح تصعد الى الملأ الأعلى .. لولا ان فتحت عيني فرأيت مـا كنت احسبه صخرة طائراً اشبه شيء بالنسر في خلقه والقبة في ضخامتها واستدارتها،واستمر ذاهباً بي في افق السماء ، ثم رنق لحظة في الهواء ثم هبط الى قـة الجبـل فاسرعت بالانحـدار عنـه وهنـالك احسست بسلسبيل بـارد من الامـل يتسرب الى قلبي فينقع غلته . ويطفيء لوعته ، لانني رأيت السفح الثاني

ورأيت بهجة الحيـاة وزهرة العمران .

رآيت على البعد خطوط الخضرة خول سطور الماء ورأيت الاكواخ الصغيرة والقصور العظيمة كانهـا العصافير السوداء ، والحمائم البيضاء ، وكان ما ألم بنفسي من السرور انساني ما ألم بجسمي من النصب فانحدرت اليهافما بلغتهاحتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية قد وقف على بابهاشيخ هو اشبه الاشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الهيئة في صور سكان المريخ ، فذعر مني كما يذعر الانسان لرؤية الجان ، وما كان الذي قام في نفسه مني باكثر ممـا قـام في نفسي منـه ، لولا اني الفت الغرائب ، وعجمت عود العجائب فتقدمت نحوه وكانما الهمت لغته،فحييته بها فحياني وهو يقول:ما كنت احسب ان الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الانسان ، فمـا زلت احدثه واستدنيه حتى أنس بي ودعـاني إلى منزله وخلطني بنفسه وأهله وقدم لي طعاماً شهياً ومهد لي مرقـداً وثيراً [1] . وكان الليل قد اقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه،فنمت نوماً هادئاً مطمئناً لا تروعني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك .

استيقظت انا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي الى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفة صفاً واحداً ان ييسر لها الله عسرها ، ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره، فاخذ منظرها هذا من نفسي ماخذاً عظيماً فلم ار بداً من

(١) الوثير : الواطيء .

الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها والبكاء لبكائها ،وعجبت أن يكون مثل هذا الايمان الخالص راسخاً في نفوس اهل هذه المدينة، ولم يرسل إليها رسول،ولم ينزل عليها كتاب،فلما فرغنا من الصلاة التفت الى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون ، فمن تعبدون؟ وتصلون ، فمن الذي تدعون ؟ قال : نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبرها ، قلت : هل رأيتموه حتى عرفتموه قال نعم رأيناه في أثاره ومصنوعاته ، رأيناه في السماء والماء ، والفلك الدائم والنجم السائر، وفي أجنحة الحيوان وبذور النبات،ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك ، قلت: ولم تعبدونه ؟ قال:شكراً له على نعمة الخلق والرزق ، وان أحدنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن اليه بجرعة او انعم عليه بمضغة ، فأحرى به أن يشكر مانح المانحين ، والمحسن الى المحسنين ، فقلت في نفسي : لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين ، الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، ثم سألته اين تذهبون بعد الموت ؟ قال:الى النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، قلت : لعلك تريد الجنة والنار ؟ قال : لا افهم ما تقول ، وانما اعلم ان الإله الحكيم لا يترك المحسن دون ان يجازيه خيراً على إحسانه ، كما يابى عدله ان يسوي بين المحسن والمسيء،قلت : متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً ، قال : الاحسان عمل الخير ، والاساءة عمل الشر، لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالاضرار بأخيه، او من يقصر في دفع الأذى عنه،فقلت في نفسي ليت الفقهاء الذين ينفقون اعمارهم في الحيض

والاستحاضة والمذي والودي [1] والحدث الأكبر والحدث الاصغر . وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرتها والجوهر والعرض والحدوث والقدم، والدور والتسلسل، وليت المتصوفة الذين يحاولون ان ينازعوا الله مشيئته ويجاذبوه قدرته ، ويغالبوه على امره ونهيه ويزاحموه في لوحه وقلمه ـ يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار ، الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ، ولا يميزون بين الدين والتين .

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ ان يزيرني في المدينة .فانحدر بي اليها،فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، وقد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة ، ورأيت سكانها مكبين على اعمالهم ، بجدين في شؤونهم . . صغاراً وكباراً . . رجالاً ونساء . . مافيهم فقير يتسول . . ولا متبطل يتثائب ويتململ،واغرب ما استهوى نظري انني لم ار في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي اعرفه في مدائننا بين الناس في منازلهم ومراكبهم . . ومطاعمهم ومشاربهم،وهيأتهم وازيائهم، كأن جميع سكانها سواسية في حالة المعيشة ودرجة الثروة،فسألت الشيخ :ألا يوجدفيكم غني وفقير ،وسيد ومسود؟ قال:لا يا سيدي،حسب الرجل منا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل اثقاله ، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك ، لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لانه لا يوجد فينا غني وفقير.قلت:لا بد ان يكون بينكم العاجز عن العمل والمتعطل الكسلان ! قال : اما الكسلان

---

(١) المذي والودي : نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب

فلا وجود له بيننا ، لانه يعلم انا لا نرحمه ولا نغفر له ذلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلها عن العمل ، واما العاجز فنحدب عليه ونحسن اليه ، ولا نرى لانفسنا في ذلك فضلاً لأننا انما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواساة العاجزين ، ورحمة البائسين .

وانه ليحدثني بهذا الحديث اذ لاحت لنا بنية فخمة تمتاز عن غيرها من البني بحسن نظامها، وجمال هندامها، فقلت للشيخ: هل أرى قصر الملك، قال لا ، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمه فاحتجن [1] دون عباده أرضهم ومالهم ليعلو عليهم ، ويستأثر بالنعمة من دونهم ، فغضب الله عليه ، وقلب نعمته نقمة ، ورخاءه شدة ، فإنه مما أراح [2] رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه الى شهواتها، وحملها فوق ما تحمل طبيعتها فها هو ذا اليوم يقاسي من آلام الامراض وأنواع الاسقام مما بغض اليه العيش ، وحبب اليه الموت : لم يحمه قصره ، ولم يغني عنه ماله ، فهو عبرة للمعتبرين ، وموعظة السابلة [3] ، فكبر الرجل في ذرعي [4] وعظم في عيني ، وأكبرت فيه وفي امته هذه الخلال الشريفة ، والأخلاق العالية، وقلت في نفسي ان مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة واصول التربية وفنون الآداب ، لتعجز عن ان تخرج للناس رجالاً يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في صفاتهم وفضائلهم ،

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه .   (٢) اراح فلان الشيء : وجد ريحه .
(٣) السابلة : المختلفون على الطرقات في حوائجهم .
(٤) كبر في ذرعي : عظم وقعه عندي .

وأردت ــ على ذكر المدارس ــ ان اعرف مناهج التعليم عندهم فقلت للشيخ : هل لك ان تريني مدرسة من مدارسكم ؟ فعجب لسؤالي وقال : مــا المدرسة ؟ فكان عجبي لجوابه اكثر من عجبه لسؤالي وقلت:المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون وكبار يعلمون ، قال : منــا الذي يتعلمه الصغار من الكبار ؟ قلت : مــا يصلح شانهم وينفعهم في معاشهم وميعادهم ، قال : وأي حاجة بنا الى مثل هذا المجتمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ؟ إنا يا سيدي ارحم بابنائنا من ان نكل امرهم الى غيرنا، فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم . فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع،نعلمهم فيها كيف يرمون البذور ..وكيف يستنبتونها..وكيف يصنعون الآلات وكيف يستعملونها .. وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم .. وإنا لا نعرف علماً غير العمل ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا .. ونستعين به على عبادة ربنا . قلت الكم حاكم يتولى اموركم ؟ قال لنا : حكم لا حاكم وهو رجل قد وثقنا به وبفهمه واستقامته .. فاخترناه لفصل الخصومات ان عرض لنا من ذلك عارض . قلت : اليس له جند وأعوان يؤيدونه ويتولون تنفيذ احكامه ؟ قال كلنا جنده وكلنا واعوانه على كل من يختلف عليه او يتمرد على حكمه فقد وثقنا به وبعدله وحسبنا ذلك وكفى .

قلت : اليس له سجناً يسجن فيه المجرمين ؟

قال : لا .. حسب المجرم عندنا عقوبة ان يتفق اهل المدينة على احتقاره والزراية به .. وان احدنا لا يؤثر ان يتخطفه الطير او يسقط

عليه كسف [١] من السماء على ان يرى نفسه بغيضاً الى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في اعينهم . . لا يرفعون اليه طرفاً ولا يقيمون له وزناً .

وما وصلنا من حديثنا الى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا الى المنزل الذي خرجنا منه .. فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق .. فلم ار فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتاً اسعد حظاً ولا انعم عيشاً ولا اروح بالا من هذا البيت .

تلك هي « مدينة السعادة » التي يعيش اهلها سعداء لا يشكون هماً .. لأنهم قانعون . ولا يمسكون في أنفسهم حقداً .. لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون .

تلك « مدينة السعادة » التي رأيتها فأحببتها وأحببت العيش فيها .. لولا ان الله في خلقه سنة لا تتبدل .. وشأناً لا يتحول .. فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقدي في منزل الشيخ فلم استيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ، فلا السهل ولا الجبل .. ولا الشيخ ولا المزرعة .. ولا المدينة ولا السعادة :

ولما نزلنا منزلا طله الندى [١] أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

(١ الكسف القطعة .
(١) طل امطره الطل ، وهو المطر القليل .

أيها المحزون

إن كنت تعلم انك اخذت على الدهر عهداً ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك.. وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي، فجدير بك ان تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مارب او استعصى عليك مطلب. وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في اخذها وردها وعطائها ومنعها وأنها لا تنام عن منحة تمنحها، حتى تكر عليها راجعة فتستردها.. وأن هذه سنتها وتلك خلتها في جميع أبناء آدم.. سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ.. ومن يطأ بنعله هام الجوزاء.. ومن ينام على بساط الغبراء، فخفض من حزنك وكفكف من دمعك.. فما أنت باول غرض أصابه سهم الزمان. وما مصابك باول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان.

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الامل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نوراً.. وقلبك سروراً، وما هي إلا كرة الطرف ان

افتقدته .. فما وجدته . ولو انك اجملت في املك لما غلوت في حزنك .. ولو أنت انعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ..ما تظنه نجما زاهراً . وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لهـا .. ونظر اليهـا نظرة المستريب بهـا .. وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها .. فإن بقيت في يده فذاك ، والا فقد أعد لفراقها عدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت،ولو الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر . ولولا فرحة التلاق ما كانت ترحة الفراق .

الى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزوياً في ركن من الأركان في احد الاندية وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن ، وانحنى على نفسه كأنما هو يشعر ان قلبه يتنزى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه ، ولو أنه اراد بنفسه خيراً لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعداً لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والاحزان .

سألته : ما بالك ايها الصديق ؟ قال : لا شيء ، قلت : انت تكتمني ما في نفسك ، ولو عرفتني ما كتمتني ، قال : ما جهلتك مذ عرفتك ، ولكنني أعطيت الله تعالى عهداً مذ خلقت ألا اشكو الا من ارجو عنده البرء ، وما انا براج عندك ولا عند احد من الناس براءاً من دائي، قلت : هبني طبيباً ، والطبيب وان كان لا يشفي الا نادراً فإنه يسكن غالباً ويعزي دائماً . فان انا عجزت عن معالجتك فلن اعجز عن تعزيتك ، على

ان المـــاء اذا اشتد غليانه احتاج الى التنفيس عنه ، والا طـــار بالقدر ، طيران الهم بالصدر .

فاصغى الى كلماتي واستخذى لها وأنشا يحدثني حديثاً تمازجه العبارات وتقطعه الزفرات ، يقول : زوجني ابي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج الا فيه قضاء لباناتها وترفيه عيشها وارضاء نفسها وهو يحسب انه قد احسن الي بسليلة المجد، وربيبة النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور ، اجل انهـا ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عنه ـ غفر الله له ! ـ انني مـا كنت اريد ان اكون تاجراً اكسب مالا ، بل زوجاً ، وأن اجد بجانبي نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مغيبهـا ، ومرآة صافية نقية أتراءى فيها فتريني نفسي كما هي ، لا تكذبني فى خير ولا شر واني اريد ان اجد في الزوجة التي اتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ومن لي به في امرأة تجهل حتى ارضاع طفلها، ولبس ثوبها اعلى ان ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها، فقد كانت لها خادم للابسها، واخرى لشعرها واخرى لسريرها وطابخة وغاسلة ، ومرضع وقهرمانة[1] وخياطة خـاصة بهـا ، وطبيب لا يغب[2] عن زيارتهـا ، ومؤنسات لا يفارقن مجلسها .. ولم تكن ممن انعم الله عليهن بنعمة الجمال .. فكانت تنفق مـا يزيد عن نصف دخلها في الحسن المجلوب والجمال المكذوب .. وليتها كانت كانت تغفل أمري وتتركني وشاني فاستطيع ان اتناساهـا واعد نفسي

(١) القهرمان : الوكيل ، أو أمين الدخل والخرج ، جمعها : قهارمة .
(٢) أغب فلان القوم : إذا جاءهم حينا بعد حين .

من العذاب تخيلا وتقديراً، بل كانت تقيم علي من نفسها ومن هذا الجحفل اللجب[1] المحيط بها حراساً كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز ، يرقبن مواقع نظري ومواطىء قدمي ، لتعلم أين مذهب قلبي ووجهة نفسي فتغار علي من الكواكب اذا رأتني انظر اليها .. وتكاد تمزق الثوب الذي تعلم اني احبه وأؤثره .. وتحسبها اهة الوجد او دمعة اذا رأتني اتاوه من آلام عشرتها او ابكي لعظم مصيبتي فيها .. وما هيَ بغيرة الحب ، ولكنها الاثرة[2] قبحها الله وقبح كل من تاتي به ، واكثر ما كان يغيظني منها : انها ما كانت تفتح علي باب الحساب على اللفتات والخطوات الا في الساعة التي اريد ان اخلو فيها بنفسي او بكتابي ، فما اكاد انتفع بواحد منها . فإن سكت اغضبها سكوتي وان نطقت اغضبها حديثي . وان قرأت في كتابي ظنت ان المؤلفين ما الفوا الكتب الا نكاية بها لاستطيع ان اتخذها معتصماً اعتصم به من محادثتها ومسامرتها . فكان الكتاب في نظرها اعدى أعدائها وابغض الاشياء اليها ، وجملة القول انها ما كانت تستطيع ان تتصور الا ان الله خلقها لتكون طفلة لاهية لاعبة في جميع اطوار حياتها ، وانه ما خلقني الا لاكون زينة مجلسها ودمية[3] قصرها ، واداة لهوها ولعبها ، فلا اقرأ ولا اكتب ولا اعطي نفسي حقاً من حقوقها، ولا ابكر لمزاولة اعمالي ولا اسأم أحاديثها الطويلة المملة التي لاتشمل الا على نقد الازياء واغتياب النساء . فإن وافيت فذاك والا

---

(١) الجحفل : الجيش واللجب : ذو الجلبة والصياح .
(٢) الأثرة : اختيار الشيء والاستئثار به .
(٣) الدمية : الصورة المنحوتة من المرمر .

استحالت في لحظة واحدة من انسان ناطق الى وحش مفترس، فلاتعرف كلمة مؤلمة لا تسمعنيها ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها علي . فكنت ـ بين الم رضاها وعذاب غضبها ـ في شقاء حبب الي الموت وبغض الي وجه الحياة . وبعد : فقد رأيت ان العيش معها مستحيل .. فلم ار بدأ من فراقها ففارقتها وما على وجه الارض شيء ابغض الي من الجد .. ولا اسمج في نظري من المال .قلت:ولكني لا ازال اراك حزيناً حتى الساعة . قال : نعم لانني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة .. ورحت افتش عن الزوجة المتعلمة وقلت : ليكون لي من الشان في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول .. بعد ما صار الي الخيار . وبعد تلك التجربة وذاك الاختيار .. فهيأ لي الحظ جاراً ملاصقاً ما زلت أسمع مذ حل في جواري ان في بيته فتاة جميلة ما زال يعني بامرها حتى خرجها [1] وأدبها فأصبحت نابغة مدرستها .. وسيدة أترابها علماً وفضلا وتهذيباً وأدباً . فما قنعت بالخبر حتى خالطت أباها ثم خالطتها .. فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها.. فوقعت في نفسي احسن موقع .

* وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل *

خطبت الفتاة الى أبيها فما لبث ان أخطبني [2] فامتلأ قلبي فرحاً وسروراً .. وخيل اليّ أنني أرى في سماء الآمال نجماً لامعاً ينير ظلمة

(١) خرج الأستاذ تلميذه : هذبه وعلمه .
(٢) يقال خطب فلان الى فلان فأخطبه : أي أجابه .

حيـاتي ، وسجلت ان الدهر أنشا يكفر بحسناته مـا اسلف من سيئاته ، فاني لكذلك وقـد أعددت للبناء بهـا عدته ، ولم يبق بيـني وبينه الا يوم واحد ، اذا بالبريد قد هجم علي بهذا الكتاب ، فهاكهه فاقرأه ، فان فيه بقية قصتي ، وسر نكبتي . ثم ألقى الي بكتاب معنون بإسمه ، ففضضته فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة وقد ألقت برأسها على كتفه ، ووجدت مع البطاقة كتاباً فقرأت فيه ما ياتي :

« علمت انك خطبت فلانة الى أبيها وانك عما قليل ستكون زوجها ، ولعمري لقد كذبك نظرك ، وخدعك من قال لك انك ستكون سعيداً بها ، فانها لن تكون لـك بعـد ان صارت لغيرك ، ولا يخلص حبـك الى قلبها بعد ان امتلأ بحب عاشقها ، فاعدل عن رأيك فيها ، وانفض يـدك منها ، وان أردت ان تعرف من هو ذلك العاشق وتتحقق صـدق خبري واخلاصي اليك في نصيحتي فانظر الى الصور المرسلة مع هذا الكتاب ؟

التوقيـع

فما نظرت الصورة وقرآت الكتاب حتى عرفت كل شيء ، فأحسست برعشة تتمشى في اعضائي ، وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، الا انني تماسكت قليلا ، فاعدت اليـه كتابه وقلت له وهو كل ما استطعت ان اقول : ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد مـا انكشف لك سرها ، وظهرت لـك حقيقتها ، ولو كنت

مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها ، الى الاستغفار من حبها ، وحمداً لله على ما الهم من صواب الرأي فيها ، أمـا ان سالتني عن رأيي في زواجك بعد الآن ، فاني لا أرى لك الا ان تترهب وتتعزب [1] وان تقول ما قاله « هملت » وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها : « الى الدير .. الى الدير » .

(١) تعزب : أي عاش عزباً لا يتزوج .

الرحمة

ساكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر، لأني أريد ان اخاطب القلب وجهاً لوجه ، ولا سبيل الى ذلك الا سبيل الشعر .

ان البذور تلقي في الأرض فلا تنبت الا اذا حرث الحارث تربتها ، وجعل عاليها سافلها ، كذلك القلب لا تبلغ منه العظة الا اذا داخلته ، وتخللت اجزاءه ، وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد : كن رحيماً ، اشعر قلبك الرحمة ، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : اني غير سعيد ، لأن بين جنبي قلباً يلم به من الهم ما يلم بغيره من القلوب ، اجل . فليكن ذلك كذلك ، ولكن اطعم الجائع واكس العاري ، وعز المحزون ، وفرج كربة المكروب ، يكن لك من هذا المجموع البائس خير عزاء يعزيك عن همومك واحزانك ، ولا تعجب ان يأتيك النور من سواد الحلك ، فالبدر لا يطلع الا اذا شق

رداء الليل ، والفجر لا يدرج الا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها .. ورثت حبالها .. واصبحت اثقل على النفس من الحديث المعاد .. ولم يبق ما يعزى الإنسان عنها الا لذة واحدة : هي لذة الإحسان .

ان منظر الشاكر منظر جميل جذاب .. ونغمة ثنائه وحمده اوقع في السمع من العود في هزجه ورمله [1] واعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول [2]

احسن الى الفقراء والبائسين ، واعدك وعداً صادقاً انك ستمر في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره عنك من حيث لا يعلم بمكانك ، انك اكرم مخلوق ، وأشرف إنسان ، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك ان يجزيك الله خيراً بما فعلت .. فيدعو صاحبه بدعائه ، ويرجو برجائه .. وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بها الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة : ما يجده الصالحون اذا ذكروا في الملأ الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون او مفؤود [3] فتبتسم سروراً ببكائك .. واغتباطاً بدموعك ، لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور .. تسجل لك في تلك

(١) الهزج والرمل : نوعان من الموسيقى .
(٢) معبد : أحد كبار المغنين في العصر الأموي، والثقيل الأول : ضرب من ضروب الغناء
(٣) المفؤود : المصاب في فؤاده بألم او غيره .

الصحيفة البيضاء : انك إنسان .

ان السماء تبكي بدموع الغمام..ويخفق قلبها بلمعان البرق .. وتصرخ بهدير الرعد ، وان الارض تئن بحفيف الريح .. وتضج بأمواج البحر ، وما بكاء السماء ولا أنين الارض الا رحمة بالإنسان .. ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها في بكائها وانينها .

ان اليد التي تصون الدموع ، افضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور . اشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن افضل من القائد واشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيي الميت . ومن يميت الحي .

ان الرحمة كلمة صغيرة .. ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها . والشمس في حقيقتها .

واذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالتـه من القلب الرحـيم .. وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة .

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائـع ولا مغبون ولا مهضوم .. ولأقفرت الجفون من المدامع .. ولاطمانت الجنوب في المضاجع . ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه . ولم يقذف به في هـذا المجتمـع ليموت فيه جوعاً .. بل أرادت حكمته ان يخلقه ويخلق له فوق بساط الارض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤزنته . ويسد حاجته .. ولكن سلبه الرحمـة فبغى بعضه عـلى بعض وغـدر القوي بالضعيف واحتجن دونه رزقه .. فتغير نظام القسمة العادلة .. وتشوه وجهها الجميل .. ولو

كان للرحمة سبيل الى القلوب لما كان للشقاء اليها سبيل .

الفرد هو المجتمع .. وإنما يتعدد بتعدد الصور .. أتدري متى يكون الإنسان إنساناً ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة واشعرها نفسه .. فخفق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها . فاذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها ، انفرد عنها واستوحش من نفسه ، واذا كان الأنس ماخذ [1] الإنسان المجتمع .. فالوحشة ماخذ الوحش المنقطع .

وجماع القول انه لا يمكن ان تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الاشقياء في مكان واحد ، الا اذا أمكن ان يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم .

ان من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل .. فاذا مشى مشى مندفعاً مندلثاً [2] يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة ، واذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه الا الإغراق في الضحك سخرية به وببذاءة ثوبه ودمامة خلقه ، وان من الناس من اذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم [3] ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم الا كما يعامل شويهاته وبقراته .. لا يطعمها ولا يسقيها الا لما يترقب من الربح في الاتجار بالبانها واصوافها ..ولو استطاع ان يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل .. وان من الناس لا حديث له الا الدينار واين مستقره وكيف الطريق اليه وما السبيل الى حبسه والوقوف في

---

(١) ماخذ الكلمة : أصل اشتقاقها .

(٢) الدلث : كالدفع .

(٣) الدرة : اللبن اذا كثر وسال .

وجهـه والحيطة لفراره .. يبيت ليـله حزيناً كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته او يحلم في منامه انه سيأتيه فلم يقيض له ، وان من النـاس من يؤذي الناس لا يجلب لنفسه بذلك منفعة او يدفـع عنهـا مضرة ، بل لأنه شرير يدفعه طبعه الى ما لا يعرف وجهه او ليضرّي[1] نفسه بالاذى مخافة ان ينساه عند الحاجة اليه .. حتى لو لم يبـق في العـالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه .. وان من الناس من اذا كشف لـك عن أنيابـه رأيت الدم الاحمر يترقرق فيهـا ، او عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها الا الصورة البشرية ، او عن قلبـه رأيت حجراً صـلداً من احجار الغرانيت لا يبـض[2] بقطرة من الرحمة .. ولا تخلص اليه نسمة من العظة .

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله ان تكون واحداً من هؤلاء فـانهم سباع مفترسة وذئاب ضارية .. بـل اعظك ألا تدنو من واحـد منهم او تعترض طريقه .. فربما بدا له ان يأكلك غـير حافل بـك .. ولا آسف عليـك .

أيها الإنسـان . ارحم الارملة التي مات عنهـا زوجها ، ولم يترك لهـا غير صبية صغار ، ودموع غزار، ارحمها قبل ان ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة .

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتر منهـا عرضها علهـا

---

(١) يقال : أضرى فلان كلبه بالصيد وضرّاه ، اذا أغراه به وعوّده متابعته .
(٢) بضّ الدم : سال .

تعجز عن ان تجد مساوماً يساومها فيه فتعود به سالماً الى كسر بيتها .

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومرآة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ، ولأن الله قد وكل أمرها اليك ، وما كان لك ان تكذب ثقته بك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فانك الا تفعل قتلته او أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ، ولا تتخذ عقله متجراً تربح فيه ليكون من الخاسرين .

ارحم الحيوان لانه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويبكي بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يبين .. ارحمه وكذب من يقول ان الإنسان طبع على ضرائب لؤم ، أقلها أنه يقبل يد ضاربه ويضرب من لا يمد اليه يداً .

ارحم الطير لا تحبسها في اقفاصها ودعها تهيم في فضائها حيث تشاء ، وتقع حيث يطيب لها التغريد والتنقير ، ان الله وهبها فضاء لا نهاية له فلا تغتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مد جناحها ، أطلق سبيلها وأطلق سمعك وبصرك وراءها لتسمع تغريدها فوق الاشجار ، وفي الغابات ، وعلى شواطىء الانهار ، وترى منظرها وهي طائرة في جو السماء ، فيخيل اليك انها اجمل من منظر الفلك الدائر والكوكب السيار .

أيها السعداء احسنوا الى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الاشقياء ، وارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .

رسالة الغفران [١]

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداها ولا بما وقع لي فيها ، ثم صحوت فرأيت نفسي في صحراء مد البصر مكتظة [٢] بأنواع من الخلق لا احصيهم عدداً ، فعلمت أني بعثت ، وانه يوم القيامة ، فساورني [٣] من الهم ما ساورني حين ذكرت ان مقداره ألف سنة من سني القيامة ،وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعاً ، ويحترق تحت اشعة شمس ليس بينه وبينها الا قيد ظفر ، فتماسكت بضعة اشهر ، ثم لم أجد بعد ذلك الى الصبر سبيلا ، فزينت لي نفسي الكاذبة ان اذهب الى رضوان خازن الجنان ، وكنت احمل شهادة التوبة في يدي لاسترحمه والتمس منه الاذن بالدخول قبل انفضاض الحشر ، فما زلت أرقيه بقصائد المدح المسومة [٤] باسمه كما كنت ارقي بامثالها أمثاله من عظماء العاجلة وسادتها ، فما أبه [٥] لي ولا فهم كلمة مما اقول ، فانصرفت عنه الى

(١) للمعري رسالة طويلة بهذا العنوان هذه خلاصتها .

(٢) مكتظة : مملوءة . (٣) ساورته الهموم : واثبته وملكت ناصيته .

(٤) المسومة : المعلمة . (٥) أبه : احتفل .

خازن آخر اسمه زفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه ؛ الا انه كان أرق منه وألين جانباً ، فاشار علي بالذهاب الى النبي الذي أتبعه ، وأفهمني ان الأمر موكول اليه ، فعدت وبين جنبي من الحسرة والألم ما الله عالم به ، فبينا أنا اتخلل الصفوف ، وازاحم الوقوف ، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم ، وانعمت النظر فيه ، فاذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، واذا بالمحتفين به جماعة من شعراء العرب كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه ، هذا يقول له : رويت بيتي على غير وجهه ، وذاك يقول : أعربته على غير ما أردت وذهبت ، فدفعني الفضول كما دفعهم الى النزول في ميدانهم فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت ، وعلمت ان شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت : قبح الله الشعر والإعراب واللغة والآداب ، إنها شؤم الآخرة والاولى .

وقفت أحير من ضب في حمارة قيظ [1] لا أدري ما آخذ ، وما أدع ، حتى رميت بطرفي فاذا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في لفيف من العترة [2] الطاهرة النبوية فدلفت [3] اليه وأبثثته [4] أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال : لا عليك ، ألك شاهد بالتوبة ؟ قلت نعم ، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي ، فقال : تريث [5] قليلا حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أمرك ، فهي تمت الى أبيها بما لا نمت به [6] وكانت ممن

(١) الحمارة ـ بالتشديد ـ شدة الحر .
(٢) عترة الشخص : عشيرته وأهله .
(٣) دلف : مشى مشياً متثاقلا
(٤) أبثه السر : كاشفه .
(٥) تريث : أبطأ .
(٦) تمت بالشيء : توسل به .

قسم لهم دخول الجنـة قبـل فصل القضاء الا أنهـا كانت تخرج كل حـين للتسليم على أبيها ، ثم تعود الى مستقرها ؛ فإنا لكذلك ، واذا بمناد ينادي ان غضوا ابصاركم يا اهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمـد صـلى الله عليه وسلم ، فهرعت اليها ، فرأيتها راكبـة مـع اخوتها وجواريها عـلى افراس من نور ، وتقدم من وعـدني بسؤالها في أمري ، فانجز وعـده ، فقالت لأخيها ابراهيم : دونك الرجل ، فقال : تعلق بركابي ، فتعلقت ، فطارت الافراس في الهواء تقطـع الاجيـال وتتخطى رؤوس القرون ، حتى وافينا محمداً صـلى الله عليه وسلم ، واقفـاً لشهادة القضـاء ، فقصت عليه فاطمة ما علمت من أمري ، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفـع لي فعـدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً ، ومـا كنت اقدر ان بين يدي عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدتني لا أستمسك عليه لرقته فأمرت فاطمة جارية من جواريها ان تعبر معي فأمسكت بيدي ، فمشيت اترنح ذات اليمـين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لها : احمليني زقفونـة ، فقالت : ومـا زقفونـة ؟ فقلت : أمـا سمعت قول الجحجلول من اهل كفر طاب :

صلحت حالتي الى الخلف حتى صرت امشي الى الورا زقفونة

فقالت : ما سمعت بزقفونة ولا الجحجلول ولا كفر طاب ، فقلت : ألقي يدي فوق كتفيك ، واجعل بطني الى ظهرك ، فحملتني ، وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف ، حتى صرت الى باب الجنة،فرمت الدخول

فوقف رضوان في وجهي وقال : اين جوازك [1] فبعلت [2] بالأمر ؛ ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صفصاف فعالجته على ان يعطيني منها ورقة اعود بها الى الموقف لأستكتب عليها الجواز فابى ؛ فقلت ، وقد ملك الهم على رشدي وصوابي : أما والله لو انك حارس على أبواب الكرماء ، او خازن لخزائن الملوك والامراء لما وصل شاعر الى درهم ، ولا سائل الى سحتوت [3] ، ولهلك الفقراء بؤساً وجوعاً ، فسمع ابراهيم عليه السلام حواري [4] فجذبني جذبة حصلني بها في الجنة وصاحبي ينظر الي شزراً فدخلت ، فرأيت ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

رأيت انهاراً من الماء العذب أصفى من أديم السماء ، واصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر ، اذا جرع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة وامن ان يذوق كاس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضاً قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكئوس من الزبرجد ، فما نهلت منها نهلة حتى قلت لو كشف لاهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خمار [5] ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطر بل [6] من البواطي [7] والدنان ، ولو نظر الاقيشر الاسدى بعين الغيب الى

(١) الجواز : صك المسافر . (٢) بعل بأمره : برم به فلم يدر ما يصنع فيه .
(٣) السحتوت في الأصل : السويق القليل الدسم ، ثم أطلق على كل شيء قليل .
(٤) الحوار : مراجعة الكلام .
(٥) الخار : صداع الخمر . (٦) بلدان معروفان بجودة خمرهما .
(٧) جمع باطية ، وهي إناء الشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه .

عسجد هذه الاباريق وزبرجد تلك الكئوس لخجل من نفسه ان يقول :

أفي تلادي وما جمعت من نشب قرع القوازيز[1] أفواه الاباريق

وفي تلك الانهار آنية ترفرف فوق سطحها على صورة الطيور كالكراكي والطواويس والبط والعندليب ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب وتسبح فيها اسماك من الذهب والياقوت :

يعمن فيها باوساط مجنحة[2] كالطير تنشر في جو خوافيها

ورأيت انهاراً من لبن ، وانهاراً من عسل لا يدرك الوهم كنهه الا اذا ادرك ما يمتص نحل الجنة من ازهارها وانوارها .

رأيت جميع تلك الانهار مكبرة ، ثم تمثلت في نظري مصغرة ، فاذا هي سطور من النور ، واحرف بيضاء في صحيفة خضراء ، قرأتها فرأيتها « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن، وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين ، وانهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات » .

ظللت أمشي فما أكاد اخطو خطوة حتى أرى منظراً عجباً ينسي السابق ، ويشوق الى اللاحق، فوددت لو طويت لي الارض طياً فاتعجل النظر الى ما غاب عني من الجنة وبدائعها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرساً من الجوهر المتخير مسرجاً ملجماً فعلمت أني قد سعدت وانها الامنية التي كنت أتمناها ، فعلوت ظهره

(١) القوازيز : جمع قازوزة ، وهي قدح الشراب . (٢) مجنحة : ذات أجنحة .

وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق[1] من السحاب ، والسيف من القراب[2] ، وعلى ما جهدته لم يشك الي ما شكاه جواد عنترة العبسي اليه في قوله :

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا اليّ بعبرة وتحمحم

او ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة اليه في قوله :

تشكي الكميت الجرى لما جهدته ... وبين لو يسطيع ان يتكلما

ذكرت أني ، وأنا في الدار الفانية كنت اسمع بذكر الذاهبين الاولين من الادباء والشعراء والرواة ، فآسف على ان لم اكن في زمنهم أراهم واحضر مجالسهم ، فقلت ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار ، وهل سعدوا او شقوا ، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء ، ما لم يقيض في دار الفناء ؟

ثم رميت بطرفي فاذا فارس يحضر فرسه[3] في الهواء إحضاراً حتى تقاربنا فتماست الركب واختلفت الاعناق ، فقال : انتسب ، فقلت : فلان ، ومن انت يرحمك الله ، وقد فعل ؟ فقال : عدي بن زيد العبادي ، فدهشت وقلت : عدي ابن زيد في الجنة بعد الزيغ والضلال ؟ فقال انا عيسوي ، وانت محمدي ، وليس لصاحبك على احد حجة الا بعد ظهوره ، وبلوغ دعوته ، فقلت : لا نكران ، ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك ، واين استهتارك في قولك :

---

(١) الودق : المطر . (٢) قراب السيف : غمده .
(٣) أحضر الفرس : ارتفع في عدوه .

بكر العاذلون في وضح الصبح   يقولون لي أما تستفيق

ودعوا بالصبوح فجراً فجاءت   قينة في يمينها إبريق

قال : غفر الله لنا ما غفر لكم ، قلت : هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة فقد تمنيت على الله ان أراهم فكنت عنوان الكتاب وفاتحة الإجابة ! فقال : اصحبني ، فطارت بنا الخيل ، فقلت له : هل آمن ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد او هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً او ساقاً ؟ فتبسم ، وقال : اين يذهب بك ؟ نحن في دار الخلود والبقاء .

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمرى على شاطئه جمع كثير على سرر متقابلين ، او على الأرائك متكئين ، فهوى صاحبي بفرسه فهويت هويه ، وقلنا سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ، ثم اخذوا فيما كانوا فيه ، فاذا الأصمعي ينشد مروياته ، وابو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان ، واذا سيبويه والكسائي متصافيان بعد ان وقع بينهما في مجلس البرامكه ما وقع ، وأحمد بن يحيى لا يضمر لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمر ، واخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول أعشى ميمون :

مثل ريح المسك ذاك ريحها

وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاءه ، وقلت في نفسي : لولا ان قريشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا ، فسمعت

هاتفاً من ورائي يقول : انـا بينكم ، وفي مجلسكم ، فالتفت فـاذا الأعشى ميمون ، فلم أدر من أي مدخليه [1] اعجب ، امن مدخله الى الجنة ؟ أم من مدخله الى نفسي ، وعلمه بما هجس في صدري ؟ فعلمت ان أهل الجنة ملهمون ، ثم سالته : كيف غفر لك ؟ فقـال : سحبتني الزبانية الى سقر فرأيت في عرصات القيامة رجلا يتلألأ وجهه تلألؤ القمر والناس يهتفون به من كل جانب: الشفاعة يا محمد ، فاخذت أخذهم ، وهتفت هتافهم فأمر ان أدنو منه ، فدنوت فسالني : ما حرمتك ؟ فقلت : أنا القائل :

ألا أيهـذا السائـل ان يمت   فإن لهـا في اهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لهـا من كلالة   ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم   تراحي وتلقى من فواضله ندا
نبي يرى ما لا ترون وذكره   أغار لعمري في البلاد وأنجدا

فقال : مـا سمعتها منك قبـل اليوم ، فقلت : خدعتني عنك الناس بعد ما شددت راحلتي اليك ، وكنت رجلا احب الشراب وخفتك عليه ان تفرق بيني وبينه ، فشفع لي ، فدخلت الجنة على ألا اذوق فيها الخمر ، فقنعت بالرضاب عن الشراب ، وبمـاء الثغر المنضود عن مـاء العنقود ، ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب ، فسالت عنه فقيل لي : زهـير بن أبي سلمى ، فما كدت اصدق انه القائل :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبالـك يسأم

فقلت له : بم غفر الله لك ؟ فقال : كنت في جاهليتي أترقب مبعث

---

(١) المدخل : مصدر دخل ، كالدخول .

محمد ، وأتمنى البقاء حتى أراه ، فحال بيني وبينه الموت ، فاوصيت بـه ابني كعباً وبجيراً وكنت أؤمن بالحساب فما نفعني شيء ما نفعني قولي:

فلا تكتمن الله مافي نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب او يقدم فينقم

والى جانب زهير ، عبيد بن الأبرص ، فسالته عن مصير أمره ؟ فقال : كتبت لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي :

من يسال الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئاً فشيئاً حتى خرجت ببركة هـذا البيت من الجحيم الى النعيم .

ذهبنـا في الحديث كل مذهب وذهب بعضنـا الى ارتشاف الخمر من النهر ، في آنية الدر ، فانتشينا جميعاً فما افقنا الا على حفيف رف[1] من إوز الجنة نزل بنا ،ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج ، فما أتين عـلى الألحان الثانية حتى دارت بنـا الارض الفضاء ، وحتى ملكنا من الطرب مـا يستخف الحلوم ويطـير بالهموم ، وقلنا : لو علم جبلة بن الأيهم بما نحن فيـه ، لقرع السن على ان باع دينه بسرور محدود وانس معدود ، ودف وعود .

ذكرت جبلة فذكرت لذكره النـار وقوله تعالى : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فتمنيت ان أطلـع فـأرى المعذبـين كما رأيت المنعمـين ، فالهمت الإذن ، فاشرت لصاحبي فقام وقمت ، وركبنا فرسينا فطارتا بنا

(١) الرف : القطيع من الطير .

حتى انتهيا الى سور الجنة فرأينا عنده من الداخل كوخاً يسكنه شيخ زري الهيئة ، فاشرفنا عليه فقال : لا تعجبوا لشاني ، أنا الحطيئة .. فوالله لولا أني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي :

أرى وجهاً شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

لما دخلت الجنة .. ولما ادركت كوخاً ولا حجراً ، فتركناه .. وطلعنا ، فما رآنا اهل النار حتى ضجوا بصوت واحد « ان أفيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله » فرأينا ملوكاً وأكاسرة يتضاغون [1] في السلاسل والاغلال ويقولون : « ربنا ارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فيهتف بهم هاتف « او لم نعمركم ؟ ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

ورأيت بجانبي امرأة تبينتها فاذا هي الخنساء ، تطلع مثلنا فترى رجلا كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار . فتمتعض وتقول : يا صخرة .. هذا تاويل قولي فيك من قبل :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه النار

ورأيت هناك كثيراً من امثال أمرىء القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد ، ورأيت بشارا بن برد تفتح عيناه بكلاليب من نار ، وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله ، وقال له ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك :

(١) يقال : بات الصبيان يتضاغون من الجوع ، أي : يتضررون منه .

إبليس افضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وجزعنا من المنظر فهممنا بالرجوع .. وإذا إبليس يهتف بنا : يا اهل الجنة! بلغوا عني أباكم آدم أني لم ادخل النار بسببه حتى اخذت معي اكثر وَلَده وأفلاذ كبده ، فلا يهنأ كثيراً بمصيري ، فقلنا : قبحة الله ، ما يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم ، فما كان لنا هم بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا آدم عليه السلام .. فلقيناه .. فبلغناه الرسالة ، فقال: وارحمتاه له ، ما كان بينه وبين الإيمان الا القليل .. فارداه الحسد فكان من المهلكين .. فقبلنا يده وانصرفنا الى ما أعد الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير .. وحور وولدان ، كأنهم الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لو لا ان هدانا الله .

عبرة الدهر

بنى فلان في روضة من بساتينه الزاهرة قصراً فخما يتلألأ في تلك البقعة الخضراء تلؤلؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء .. ويطاول بشرفاته الشماء افلاك السماء ، كانه نسر محلق في الفضاء ، او قرط معلق في أذن الجوزاء ، وكان شرفاته آذان تفضي اليها النجوم بالاسرار ، وطاقاته ابراج تنتقل فيها الشموس والاقمار .

شاده مرمراً وجلله كلسا فللطير في ذراه وكور [1]

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة[2] لرسام الا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته واركانه حتى ليخيل الى السالك بين ابهائه[3] وحجراته ، ومحاربيه وعرصاته[4] انه يتنقل من روضة تزهر بالورود الحمراء ،

---

(١) الكلس : الصاروج يبنى به .
(٢) ليقة الدواة : صوفتها ، ويتخذها أيضا لجمع أخلاطه فيها .
(٣) الأبهاء ، جمع بهو ، وهو البيت المقدم أمام البيوت .
(٤) المحراب هنا : صدر البيت ، والعرصات ، جمع عرصة ، وهي ساحة الدار .

والانوار البيضاء ،الى بادية تسنح فيها الذئاب الغبراء، والنمور الرقطاء، ومن ملعب تصيد فيه الظباء الاسود ، الى غاب تصيد فيه الاسود الظباء، وأنشأ في كبرى ساحاته ، وأوسع باحاته : صهريجاً من المرمر مستديراً يضم بين حاشيته فوارة ينفر الماء منها صعداً كأنه سيف مجرد ، او سهم مسدد ، فيخيل الى الرائي ان الارض تثأر لنفسها من السماء وتتقاضاها ما أراقت منها من الدماء ، تلك تقاتلها بالرجوم والشهب ، وهذه تحاربها بالسهام والقضب . وغرس حول دائرة الصهريج دوائر من شجرات مؤلفات ومختلفات ، واغصان ، صنوان وغير صنوان ، اذا رنحتها نسائم الاسحار .. رقصت فوق بساط الأزهار ، وتحت ظلال الأثمار ، فغنت على رقصها الاطيار ، غناء الاغاريد لا غناء الأوتار ، وادخر فيه لنعيمه وبلهنيته [1] ما شاء الله ان يدخر من نضائد [2] ومقاعد ، ووسائد ومساند ، وفرش ، وعرش ، وكلل [3] وحجل [4] ، وتماثيل وتهاويل [5] وصحاف من ذهب ، كاللهب ، واكواب من بلور ، كالنور ، واقفاص للحمائم والنسور ، ومقاصير للسباع والنمور ، وعربات وسيارات ، وجياد صافنات، ووصائف وولائد ، تحيط بالمجالس والموائد .. إحاطة القلائد .. بأعناق الخرائد .. وخدم حسان .. تنتقل في الغرف والقيعان .. تنقل الولدان في غرف الجنان .

---

(١) بلهنية العيش : رخاءه :　　(٢) النضائد : جمع نضيدة ، وهي الوسادة .

(٣) جمع (كلة) بالكسر ، وهي الستر الرقيق .

(٤) جمع (حجلة) بفتحات : وهي ساتر العروش في جوف البيت .

(٥) التهاويل : النقوش والصور ؛ لأنها تهول من ينظر إليها .

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية [1] الإهاب ، أفاق صاحب القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم ير امامه غير خادمه « بلال » ، وهو خصي اسود من ذوي الاسنان ، رباه صغيراً وكفله كبيراً ، وكان يجمع بين فضيلتي الذكاء والوفاء ، فاشار اليه إشارة الواله المتلهف ان يأتيه بجرعة ماء ، فجاء بها ، فتساند على نفسه حتى شرب ، وكأن الماء قد حل عقدة لسانه ، فسأله : في أي ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال ؟ فأجابه : نحن في الهزيع الاخير يا سيدي ، فقال : ألم تعد سيدتك الى الآن ؟ قال : لا ، فامتعض امتعاضاً شديداً وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يتكلم كأنما يحدث نفسه ويقول : انها تعلم أني مريض ، وأني في حاجة الى من يسهر بجانبي ويتعهد أمري ويرفه [2] عني بعض ما اعالجه ، وليس بين سكان القصر من هو أولى بي واقوم عليّ منها ، واين وفاؤها الذي كانت تزعمه وتقسم لي بكل محرجة من الأيمان عليه ؟ اين حبها الذي كانت تهتف به في صباحها ومسائها وبكورها واصائلها ؟ اين النعيم الذي كنت اقلبها في اعطافه والعيش الذي كنت ارشفها كؤوسه؟ أإن علمت أني اصبحت بين حياة لا ارجوها، وموت لا اجد السبيل اليه برمت [3] بي واستثقلت ظلي واستبطأت اجلي واستطالت ضجعتي ، فهي تفر من وجهي كل ليلة الى حيث تجد لذات العيش ومواطن السرور ، آه من العيش ما اطوله ، وآه من الموت ما ابعده !

---

(١) الغداف : الغراب الأسود ؛ وليلة غدافية شبيهة به .
(٢) رفه عنه : نفس عنه وخفف .
(٣) برم به : سئمه وضجر منه .

مازال يحدث نفسه بمثل هذه الاحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت اعصابه . فعاودته الحمى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كاس الموت جرعاً مريرة ، بيد انه لشقائه لم يأت على الجرعة الاخيرة منها .

أفاق من غشيته مرة ثانية ، فلم ير بجانبه تلك التي تسيل نفسه حسرات عليها ، فسأل الخادم : ألا تعلم اين ذهبت سيدتك يا بلال؟ قال : خير لك ألا تنتظرها يا مولاي ، وألا تلومها في بعدها عنك ؛ فان لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج كل ليلة لتتقاضاه ؛ قال : ما عرفت قبل اليوم ان بينها وبين احد من الناس شيئاً من ذلك ، ومتى كان الدائن يتقاضى دينه في مثل هذه الساعة من الليل ؟ وهل اعياها ان تجد من يقوم لها بذلك ، فهي تتولاه بنفسها ؟ وهل فرغت من أمر دينها بعد اختلافها اليه سنة كاملة ! قال : ان بينها وبين غريمها صكاً مكتوباً ان يؤدي ما عليه من الدين اقساطاً في كل ليلة قسط ، على ان تتناوله بيدها وان تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي ، قال : ما سمعت في حياتي باغرب من هذا الدين ولا باعجب من هذا الصك ، ومن هو غريمها ؟ قال : انت يا سيدي . فنظر اليه نظرة الحائر المشدوه[1] وقال : إني أكاد اجن لغرابة ما اسمع ، واحسب انك هاذ فيما تقول او هازئ . فدنا منه الخادم وقال : والله يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت، ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكأس تشربها ،

(١) المشدوه : المدهوش .

وملاعب تجرر فيها أذيالك،ومراقص تهتك فيها اموالك ،تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا السرير تشكو الوحشة وتبكي الوحدة ، تتقلب على أحر من الجمر شوقاً اليك ووجداً عليك ، فلا تعود اليها الا اذا شاب غراب الليل وطار نسر الصباح ، انك سلبتها تلك الليالي السابقة فأصبحت غريمها فيها ، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي عليها، ذلك هو دينها وهذا غريمها ،ألا تذكر انك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن زوجها وتملكها عليه وهو واقف موقفك هذا في حسرتك هذه ، يبكي ما تبكي ويندب ما تندب ؟ ذلك الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقه ، ويابى الا ان ياخذه عيناً بعين ونقداً بنقد ، فهو يفجعك في زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته ، ويقض[1] مضجعك كما تقض مضجعه ، وانا اعيذك بعدلك وإنصافك ان تكون من لواة الدين ، او تكون من الظالمين .

قال حسبك يا بلال ، فقد بلغت مني ، وان لي في حاضري ما يشغلني عن ماضي ، فادع لي ولدي ، قال : لم يعد يا سيدي من الوجه الذي بعثته فيه حتى الآن ، قال : لا اذكر أني بعثته في وجه ما ، واين ذهب ، قال : ذهب الى الحانة التي يختلف اليها ، ولن يرجع منها حتى يرتوي ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع ، إنني طالما وقفت بين يديك يا مولاي ضارعاً اليك ان تحول بينه وبين خلطاء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك ، فكنت تعرض عني إعراض من يرى ان تدليل الولد

(١) أقض مضجعه : جعله خشناً .

وترفيهـه[1] وإرخاء العنـان له عنوان من عناوين العظمـة ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال ، كنت اسالك ان تعلمه العلم وان تهديه الى طريق المدرسة ليضل عن طريق الحانة ، فكنت ترى ان الذي يحتاج الى العلم إنما هو الذي يرتزق منـه . وان ولدك عن ذلك من الأغنياء ، فـلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فأنت الذي ارسلته الى الحانة ، وانت الذي أبقيته فيها الى مثل هـذه الساعة من الليـل ، وانت الذي ابعدته عن فراشك احوج ما كنت اليه .

وما وصل الخادم من حديثه الى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده ، واذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلى فقدت واحدها ، فقال السيد : هات يدك يا بلال واحملني الى جوار النافذة لأروح عن نفسي بعض ما ألم بها ، او أودع الى جانبها نسمات الحياة ، ثم اعتمد على يده حتى وصل الى النافذة : فجلس على متكأ طويل وألقى على البستان نظرة طويلة فرأى البستاني وزوجه جالسين الى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال اثوابهما البالية بريق الكواكب المنـيرة من خـلال السحب المتقطعة . رآهما متحابين متعاطفين ، لا يتعاتبان ولا يتشاحان[2] ولا يشكوان هما ولا يندبان حظـاً ، رآهما قويـين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافيـاً متسلسلاً وكأنهما يحاولان ان يخرجا من إهابهما[3] مرحاً ونشاطاً ، رآهما راضيين

(١) رفهه : جعله مرفهاً ، أي لين العيش .
(٢) من المشاحة . وهي المخاصمة والمجادلة .
(٣) الإهاب : الجلد .

بما قسم الله لهما من خشونة الملبس وجشونة [1] المطعم فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران الى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة ، سمعهما يتحدثان فاصغى إليهما فاذا البستاني يقول لزوجه : والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه ، وآنيته وخرثيه [2] ، على ان تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران ، على البقاء في مثل هذا المكان أقاسي تلك الهموم والاحزان . فقالت : لا احسب ان سيدنا ينجو من خطر هذا المرض ، فقد مر به على حاله تلك عام كامل ، وهو يزداد كل يوم ضعفاً ونحولا ، قال : قد علمت ان الطبيب قد نفض يده من الرجاء فيه واضمر اليأس منه . ولا عجب في ذلك ، فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها : قالت : ما أشقاه ، أكانت نفسه عدوة اليه فجنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ، قال : ما كان عدواً لنفسه ، ولا كانت نفسه عدوة اليه ، ولكنه كان رجلا جاهلاً مغروراً ، غره شبابه وماله وعزه وجاهه فظن أنه قد اخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتفرها لنفسه ، قالت : أتعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده ؟ قال : أعلم انه سيكون لولده ، قالت : ولكنني أعلم انه سيكون لفلان ، قال : ان فلاناً ليس وريث السيد بل صديقه ، قالت : إنه ليس بصديق السيد ، بل صديق السيدة ، فهو خاطب زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد مماته .

---

(١) جشونة المطعم : خشونته .　　(٢) الخرثي : أثاث البيت .

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطرابا شديداً ، وسقط عن كرسيه وهو يقول : اشهد أني من الاشقياء . وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم .

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته تضاحك ترباً من اترابها وتغمزها بطرفها ان قد حان حينه ودنا اجله ، ورأى صديقه او ولي عهده يامر في القصر وينهي ، ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ، ويعد عدته للانتقال من القصر الى القبر ، وهنا سمع كان هاتفاً يهتف به من السماء ويقول : أيها الرجل ، لو وفيت لزوجك لوفت لك ، ولو أدبت ولدك لعناه أمرك ، ولو احسنت اختيار صديقك ما خانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك .. فاغمض عينيه وهو يقول « فلتكن مشيئة الله » .

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره :

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالا بعد حال

أفسدك قومك

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها ، والاجسام ارواحها، لست احمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك ، ولا انظر اليك بالعين التي نظر بها اليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك ، لأني اعتقد ان لك شركاء في جريمتك . فلا بد لي من إن انصفك ، وان كنت لا استطيع ان انفعك .

شريكك في الجريمة أبوك ، لأنه لم يتعهدك بالتربية في صغرك ، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين ، بل كثيراً ما كان يبخبخ [1] لك اذا رآك هجمت على تربك وضربته ، ويصفق لك اذا رأى انك قد تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك ، او اختطاف لقمة من يده ، فهو الذي غرس الجريمة في نفسك وتعهدها بالسقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت لك هذا الحبل الذي انت معلق به اليوم ، وها هو ذا الآن يذرف عليك العبرات ، ويصعد الزفرات ، ولو عرف انها جريمته ، وانها غرس يمينه

(١) بخبخ : قال له « بخ بخ »

لضحك مسروراً بغفلة الشرائع عنه وسجد لله شكراً على ان لم يكن حبلك في عنقه وجامعتك [1] في يده .

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنساني الفاسد الذي اغراك بها ، مهد لك السبيل اليها ، فقد كان يسميك شجاعاً اذا قتلت ، وذكياً فطناً اذا سرقت ، وعالماً اذا احتلت ، وعاقلا اذا خدعت ، وكان يهابك هيبته للفاتحين ، ويجلك إجلاله للفاضلين ، وكثيراً ما كنت تحب ان ترى وجهك في مرآته وجهاً ابيض ناصعاً ، فتتمنى ان لو دام لك هذا الجمال ، ولو انه كان يؤثر نصحك ويصدقك الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك بصورتها الشوهاء ، وهنالك ربما وددت يجدع الانف لو طواك بطن الارض عنها وحالت المنية بينك وبينها .

شريكك في الجريمة حكومتك ، لأنها كانت تعلم ان الجريمة هي الحلقة الاخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات ، وكانت تراك تمسك بها حلقة وتعلم ما سينتهي اليه أمرك فلا تضرب على يدك ، ولا تعترض سبيلك ، ولو انها فعلت لما اجترمت ، ولا وصلت الى ما اليه وصلت .

كانت حكومتك تستطيع ان تعلمك وتهذب نفسك ، وان تغلق بين يديك أبواب الحانات والمواخير ، وان تحول بينك وبين مخالطة الاشرار بابعادهم عنك وتشريدهم في مجاهل الارض ومخارمها .. وان تعديك [2] على قتيلك قبل ان يبلغ حقدك عليه مبلغه من نفسك .. وان تحسن تاديبك في الصغيرة قبل ان تصل الى الكبيرة .. ولكنها اغفلت أمرك

(١) الجامعة : الغل . (٢) أعدى الأمير فلاناً على فلان ، اذا نصره وأعانه عليه .

فنامت عنك نوماً طويلاً .. حتى اذا فعلت فعلتك استيقظت على صوت صراخ المقتول .. وشمرت عن ساعدها لتمثل منظراً من مناظر الشجاعة الكاذبة .. فاستصرخت جندها ، واستنصرت قوتها واعدت جذعها وجلادها ، وكان كل ما فعلت انها اعدمتك حياتك .

هؤلاء شركاؤك في الجريمة .. وأقسم لو كنت قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكني لا استطيع ان أنفعك .

فيا أيها القتيل المظلوم : رحمة الله عليك .

الصدق والكذب

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء .

يا صاحب النظرات :

سمعت بالصدق ، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر .. وسمعت بالكذب .. وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب .. وقرأت ما كتبه حكماء الامم من عهد آدم الى اليوم .. وإجماعهم ان الصدق فضيلة الفضائل والاصل الذي تتفرع عنه جميع الاخلاق الشريفة .. والصفات الكريمة .. وانه ما تمسك به متمسك الا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله .. وأعلق به من نفسه . سمعت هذا وقرأت ذاك فلم يبق في نفسي ريب في ان ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء ، وعيشي من الضنك ، وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جره علي شؤم الكذب ، وان ما كنت أتخيله قبل اليوم من ان هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة ، إنما هو ضرب

من ضروب الوهم الباطـل .. ونزعة من نزعات الشيطان ، فعاهدت الله ونفسي الا اكذب مـا حييت ، واعددت لذلك القسم العظيم عدتـه من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجهت وجهي الى الله تعالى وسألته ان يمدني بمعونته ونصره .

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعـد ذلك العهد ، ومـا رأيته من آثارها ونتائجها .

الموقف الأول : جلست في حانوتي فمـا وقف بي مساوم الا صدقتـه القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا استطيـع ان أعد نفسي رابحاً اذا تجاوزت عن بعضه .. فيأبى الا الحطيطة [1] فآباها عليه ، فينصرف عني استثقالا للثمن واستعظاماً لقدره ،وما هو الا الربح الذي اعتدت ان آخذه منه في مثل تلك الصفقة، الا أنني كنت اكذب عليه في أصل الثمن فيصغر في نظره الربح ، فلمـا صدقته عنه أعظمه وانصرف عني الى سواي ، ولم أزل عـلى هـذه الحال حتى أظلـني الليل ، ولم يفتح الله عـلي بقوت يومي ، ومـا هي الا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فاصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق .

الموقف الثـاني : جلست في مجلس يتصدره شيـخ من تجـار العقول الضيقـة المعروفين بمشايـخ الطرق .. وقـد حف بـه جماعـة من عبدته وسدنة [2] هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً يذهب

---

(١) الحطيطة : ما يحط من الثمن .

(٢) السادان : خادم الهيكل او خادم الكعبة والمراد به الحاجب ، والجمع : سدنة .

فيه الى أنه القعود عن العمل ، وإلقاء حبـل هـذا الوجود عـلى غاربه ، واعراض عن كل سعي يؤدي الى أية غاية ، ويعتمد في هذيانه هذا عـلى آيات يؤولها كما يشاء ، وأحاديث لا يستند في صحتهـا عـلى مستند سوى أنه سمعها من شيخه ، او قرأها في كتابه ، واكثر ما كان يدور على لسانه حديث « لو توكلتم عـلى الله حق توكلـه لرزقـكم كما ترزق الطـير تغـدو خماصاً وتروح بطاناً »[1]. فقلت له ، وقد أخذ الغيظ من نفسي مأخذه: يا شيخ : أردت ان تحتج لنفسك فاحتججت عليها ، أتعمـد الى حديث يستدل به رواته عـلى وجوب السعي والعمل فتستدل بـه عـلى البطالة والكسل ، ألم تر ان الله سبحانه وتعـالى مـا ضمن للطير الرواح بطاناً الا بعد ان أمرها بالغدو ، وهي التي ترويها القطرة ، وتشبعها الحبة ،فكيف لا يامر الإنسان بالسعي ، وهو من لا تفني مطالبه ، ولا تنتهي رغباته ؟

أيها القوم ، إنـكم تقولون بالسنتـكم ما ليس في قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلدتم الى الكسل ، وأردتم ان تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلا ،وما هو الا العجز الفاضح، والإسفاف الدنيء .

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ، ونادى في قومه : ان أخرجوا هذا الزنديق الملحـد من مجلسي ، فتالبوا عـلي تالبهم عـلى قصـاع الثريـد ، وأوسعوني لطماً وصفعاً ، ثم رموا بي خارج الباب ، فما بلغت منزلي حتى هلكت او كدت ، فـا مررت بعـد ذلـك بطائفة من العامـة الا رموني

(١) الخماص جمع خميص ، وهو ضامر البطن ، والبطان جمع بطين ، وهو ممتلىء البطن .

بالنظر الشزر ، وعاذوا بالله من رؤيتي كما يعوذون بـه من الشيطان الرجيم .

الموقف الثـالث : لا أكتمك يـا سيدي ، أني كنت أبغض زوجـتي بغضاً يتصدع له القلب ، غير أني كنت أضانعها وأتودد اليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي ، مداورة لها وإبقاء على مـا تحتويه يدي من صبابة مال كانت لها ، فرأيت ان ذلك اكذب الكذب وأقبحه ، فـآليت على نفسي ألا اسدل بعد اليوم من دونها حجاباً يحول بينها وبين سريرتي، فانقطع عن مسمعها ذلك السلسبيل العذب من كلمات الحب، فاستوحشت مني وأظلم مـا بيني وبينها ، فـا هي الا عشية او ضحاهـا ، حتى وهنت تلك العقدة ، وانحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق .

الموقف الرابع : حضرت مجتمعاً يضم بـين حاشيته جماعة من الفضولين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجأون الى الحديث عن الناس وتتبع عثراتهم ، ويحاولون ان ينبشوا دفائن صدورهم ، ويتغلغلوا في أطواء[1] سرائرهم ، ويغالون في ذلك مغالاة الكيائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بالسنتهم رجلا عظيماً من اصحاب الآراء السياسية لا أعتقد ان بين السالكين مسلكه والآخذين أخذه من أخلص لأمته إخلاصه ، او وقف المواقف المشهورة وقوفه ، او لاقى في ذلـك السبيـل من صدمات الدهر وضربات الايام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً ، فوالله لان تقع السماء على الارض أحب الي من ان يتهم البريء او يجازي المحسن سوءاً

(١) أطواء الثوب : طرائقه ومكاسر طيه .

على إحسانه ؛ سمعت ما لم املك نفسي معـه ؛ فقلت يا قوم ، أتطالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً [1] ثم لا تزالون عبيد الاوهام ، أسرى الخيالات ، سراعاً الى كل داع ، سعادة مع كل ساع ، تنظرون بغير روية ، وتحكمون بغير علم ، إنكم بعملكم هـذا تزهدون المحسن في إحسانـه ؛ وتلقون الرعب في قلب كل عامل يعمل لأجلكم ، وتثبطون همة كل من يحدث نفسه بخدمتكم وخدمة قضيتكم ؛ أليس مما يلقي في النفس اليأس من نجاحكم وصلاح حالكم ، ان نراكم طعمة كل آكل ، ولعبة كل لاعب ، ويستهويكم الكاذب بالكلمات التي تستهوي بها المرضعات اطفالهن ثم يدعوكم الى مناوأة الصادق فتمنحون الأول ودكم واخلاصكم ، والثاني بغضكم وموجدتكم . خاطبتهم بهذه الكلمات أريد بها خيراً لهم ، فأرادوا شراً بي ! فما خلصت من بينهم الا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم اين مكانها من عنقي !

الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً [2] كبيراً كنت ذاهباً الى موعد لا بد لي من الوفاء به، فرض علي ان يسمعني قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيته بعد ان كاشفته بعذري فابى ، فانتحيت بـه ناحية من الطريق فأنشأ يترنم بالقصيدة بيتاً بيتاً ، وأنا اشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أنه لو ضربني بها جملة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ليريحني من هـذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع ، وكلما أتى على بيت

---

(١) يريد ان تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف . (٢) الطومار : الصحيفة .

منها أقبل علي بوجهه ، وأطال النظر في وجهي وحدق في عيني ، ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لارتشاف الكاس فيستمر في شانه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً ، ثم وقف وقال : هذا هو القسم الاول من اقسام القصيدة ، فقلت ، وكم عدد أقسامها يرحمك الله ؟ قال: عشرة ليس فيها أصغر من أولها ،قلت: أتاذن لي ان اقول لك يا سيدي ان شعرك قبيح ، واقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الخشن الاجش ، وأقبح الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني مثل هذا الشعر البارد عجباً يسهل علي فوات الغرض الذي ما خرجت من منزلي الا لأجله ..فتلقاني بضربة بجمع يده[1] في صدري ، فرفعت عصاي وضربته بها على رأسه ضربة ما أردت بها ــ يعلم الله ــ الا ان اصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه فسقط مغشياً عليه . وسقطت القصيدة من يده فأسرعت اليها ومزقتها ، وأرحت نفسي منها ، وأرحت الناس من مثل مصيبتي فيها ، وكان الشرطي قد وصل الينا فاحتملنا جميعاً الى المخفر ثم الى السجن حيث اكتب اليك كتابي هذا .

فيا صاحب النظرات أفتني في أمري ، وأزل ظلمة نفسي ، فقد اشكل علي الأمر ، واصبت أسوأ الناس بالصدق ظناً ، بعد ما رأيت أني ما وقفت موقفه في حياتي الا خمس مرات ، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي ، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة اخرى ، ذلك الى ما اقاسيه اليوم في هذا السجن من انواع الآلام ، وصنوف الاقسام .

* * *

(١) جمع اليد : هيئتها حين تقبضها .

أيها السجين :

كتبت إلي ـ مسح الله ما بك ، والهمت صواب الرأي في حاليك ـ تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره ، وكاد يزلق بك الى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك ان تجعل لليأس هذا السبيل الى نفسك ، وان يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الايام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ؛ فما انت باول صادق في الارض ولا باول من لقي في سبيل الصدق شراً ، وكابد ضراً .

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حق الفهم وصبرت على مراراتها حق الصبر لذقت من حلاوتها ما تقطع دونه أعناق الرجال .

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش او كسب المال ، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها الى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال .

ان الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله ، او يرفه بها عيشه ، يحتقرها ويزدريها ، لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع

ليس من صواب الرأي ان يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به اخلاقه فان اتسع عيشه اطمأن اليها ، وان ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين اشقياء ،وبين الأرذلين كثيراً من ذوى النعمة والثراء!

لا يستطيع الرجل الفاضل ان يبلغ غايته من عيشه الا اذا استطاع ان ينزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام ، ولن يستطيع ذلك

الا اذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك الا اذا كانوا فضلاء او أشباه فضلاء ، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده اسباب العيش ويملك ينابيعه : سواد أبله ساذج يبغض الصادق لأنه يصادره في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحبب اليه نفسه ، فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش ، وقلب يحمل بغض القلوب ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار .

الصدق جنة حفت بالمكاره ، فان كان للصادق في جنة الصدق أرب فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية .

كما ان الجود يفقر والإقدام قتال ، وكما ان لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توعر طريقها وتبعد منالها الا على أيدي الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين وهم الأكثرون ، للصادقين وهم الأقلون .

أتريد أيها الرجل ان تسمى صادقاً ، وان تنال أشرف لقب يستطيع ان يناله بشر ، وان يوافيك المجد طائعاً مذعناً دون ان تبذل في سبيله شيئاً من مالك او راحتك ؟

إنك ان أردت ذلك او قدرته في نفسك ، تظلم الفضيلة ظلماً بيناً وترخص قيمتها وتلق بها في مدارج الطرق وتحت مواطىء النعال .

أيحزنك انصراف الاغنياء عن حانوتك او اتهامك بالزندقة والإلحاد او المروق والخيانة ، وترى ان ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصدق وإحرازك فضيلته ، وانت تعلم ان الفاضلين قد بذلوا من قبلك اكثر مما بذلت ، في سبيل إحراز ما احرزت ، فما ندموا ولا حزنوا ؟

أيها السجين الشريف :

هنيئاً لك السجن الذي تكابده ، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله ، وهنيئاً العيش الذي تعالج همومه ، فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من اولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء .

لا تظلم الصدق ولا تكن سيء الظن به ، وكن احرص الناس على ولائه ومودته ، وإياك ان يخدعك عنه خادع ، واصبر قليلاً يثمر لك غرسه ويمتد عليك ظله ، وهنالك تجد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذوو التيجان تيجانهم ، وارباب الكنوز كنوزهم ، لما إستطاعوا اليه سبيلا .

النظامون

مـا لهؤلاء النظامين لا يهدؤون ساعـة واحـدة عن تصديـع رؤوسنا وتمزيق أفئدتنا بهـذه الصواعق الـتي يمطرونها علينـا كل يوم من سمـاء الصحف ، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جدولا ابيض مستطيلا تخيلناه حية رقطاء ، ففزعنا والقينا الصحيفة كما ألقاهـا الشاعر المتلمس لينجو بنفسه ويسلم بحياته .

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويـل والتفخـيم ، فـاكتب بـه الى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم : ان علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بانه الكلام الموزون المقفى ، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر اكـثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه ، وإنما جروا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض الذين لا مناص لهم من ان يقفوا في تعريف الشعر عند هذا

القـدر مـا دام لا يتعلق لهم غرض منـه بغـير اوزانـه وقوافيه وعلله وزحافاته .

لا تظنوا انـ الشعر كما تظنون ، والا لاستطاع كل قارىء بـل كل ناطق ان يكون شاعراً ، لأنه لا يوجد في الناس من يعجزه تصور النغمة الموسيقية والتوقيـع عليها من اخصر طريق .

أيها القوم : مـا الشعر الا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبـدإ نشأته ولا تزال كامنة فيـه كمون النـار في الزند حتى اذا شدا [1] فاضت على اسلات أقلامه [2] كما تفيض الكهرباء على اسلاكها ، فمن احس منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم انه شاعر ، او لا فليكف نفسه مؤنة التخطيط والتسطير ، وليصرفها الى معـاناة مـا يلائم طبعه ويناسب فطرتـه من اعمال الحياة ، فوالله للمحراث في يـد الفلاح ، والقدوم في يـد النجار ، والمسبر في يد الحداد : اشرف وانفع من ألقلم في يد النظام .

فإن غم عليكم الأمر ، واعجزكم ان تعلموا مكان تلك الروح الشعرية من نفوسكم ، فاعرضوا انفسكم على من يرشدكم اليكم ويدلكم عليكم ، حتى تكونوا على بينة من أمركم .

---

(١) شدا : أخذ طرفا من الأدب والعلم .
(٢) الأسلات جمع أسلة : وهي نبات رقيق الغصن .

الحرية

استيقظت فجر يوم من الايام على صوت هرة تموء[1] بجانب فراشي وتتمسح بي ، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً ، فرابني أمرها ، وأهمني همها وقلت : لعلها جائعة ، فنهضت، واحضرت لها طعاماً فعافته، وانصرفت عنه . فقلت : لعلها ظمآنة ، فارشدتها الى الماء فلم تحفل به وأنشات تنظر الي نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والاحزان ، فاثر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً ، حتى تمنيت ان لو كنت سليمان افهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وافرج كربتها ، وكان باب الغرفة مرتجاً ، فرأيت انها تطيل النظر اليه وتلتصق بي كلما رأتني اتجه نحوه ، فادركت غرضها وعرفت انها تريد ان افتح لها الباب ، فاسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم الى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها ، فعدت الى

(١) المواء : صوت الهرة .

فراشي واسلمت رأسي الى يدي ، وانشأت افكر في أمر هذه الهرة ، واعجب لشأنها واقول : ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها ؟ اجل . انها تفهم معنى الحرية حق الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وامساكها عن الطعام والشراب الا من اجلها ، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الا سعياً وراء بلوغها .

وهنا ذكرت ان كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة ، والوحش المعتقل في القفص ، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص او يتلمس السبيل الى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه واسقامه .

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها : ان يكون الحيوان الاعجم اوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته ؟ وهل يجمل به ان يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل ان يصبح ناطقاً مدركاً ؟

يحلق الطير في الجو ، ويسبح السمك في البحر ، ويهيم الوحش في الاودية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد الى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل واغلالا ، وسماها تارة

ناموساً وأخرى قانوناً ، ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلة المخيفة ، وتركه قلقاً حذراً ، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله ، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما اكثر جهله ! وويح له ما اشد حمقه ؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب اكبر من العذاب الذي يعالجه ؟ او سجن اضيق من السجن الذي هو فيه ؟

ليست جناية المستبد على اسيره انه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه انه افسد عليه وجدانه ، فاصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وادرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل اذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيراً لهمن حياة لا يرى فيها شعاعاً من اشعة الحرية، ولا تخلص اليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدإ خلقه يمشي عرياناً ، او يلبس لباساً واسعاً يشبه ان يكون ظلة تقيه لفحة الرمضاء ، او هبة النكباء ، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل ، وكفنوه كما يكفنون الموتى ، وقالوا له : هكذا نظام الأزياء .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا

بينه وبين ذلك ، وملأوا قلبه خوفاً من المرض او الموت ، وأبوا ان يأكل او يشرب الا كما يريد الطبيب ، وان يتكلم او يكتب الا كما يريد الرئيس الديني او الحاكم السياسي ، وان يقوم او يقعد او يمشي او يقف او يتحرك او يسكن ، الا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات .

لا سبيل الى السعادة في الحياة ، الا اذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر الا ادب النفس .

الحرية شمس يجب ان تشرق في كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة ، يتصل اولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان اشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في ايدي الاطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، او طارئاً غريباً ، وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق باغصان الاشجار .

ان الإنسان الذي يمد يديه لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فان ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ، ولا يد لاحد عنده .

عبرة الهجرة

ان في اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الارض او السماء ، او الماء او الهواء .

ان ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وايثاره ، وصدقه واخلاصه ،اكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر ، ومشي الشجر ،ولين الحجر ،وذلك لانه ما كان يريبهم في الاولى ما كان يريبهم في الاخرى من الشبه بينها وبين عرافة العرافين وكهانة الكهنة ، وسحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده ، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الاثر الذي تركته ، ذلك هو معنى قوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

كان صلى الله عليه وسلم شجاع القلب ، فلم يهب ان يدعو الى التوحيد

قوماً مشركين يعلم انهم غلاظ جفاف شرسون متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لاعراضهم ، ويحبون آلهتهم حبهم لابنائهم .

كان على ثقة من نجاح دعوته ، فكان يقول لقريش ـ اشد ما كانوا هزءاً به وسخرية ـ : « يا معشر قريش ، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما انتم له كارهون » .

كان حليما سمح الاخلاق فلم يزعجه ان كان قومه يؤذونه ويزدرونه ويشعثون [1] منه ويضعون التراب على رأسه ، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى [2] الجزور ، وهو في صلاته ، بل كان يقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس ، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو الى الله فلا يلبي دعوته الا الرجل بعد الرجل ، فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس الى قلبه ، فكان يقول « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان أترك هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته »

وما زال هذا شأنه حتى علم ان مكة لن تكون مبعث الدعوة ، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة ، فهاجر الى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون الى الحركة ، ومن طور الخفاء الى طور الظهور .

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنها اكبرمظهر من مظاهره،

(١) يقال شعث فلان من فلان : تنقصه ،
(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للانسان .

وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها اجمل ذكرى للثبات على الحق والجهاد في سبيل الله .

لقد لقي صلى الله عليه وسلم في هجرته عناء كثيراً ومشقة عظمى ، فان قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به ، بل مخافة ان يجد في دار هجرته من الاعوان والانصار ما لم يجد بينهم ، كانما يشعرون بانه طالب حق ، وان طالب الحق لا بد ان يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً ، فوضعوا عليه العيون والجواسيس فخرج من بينهم ليلة الهجرة متنكراً بعد ما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، عبثاً بهم وتضليلا لهم عن اللحاق به ، ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه يتسلقان الصخور ، ويتسربان في الاغوار والكهوف ، ويلوذان باكناف الشعاب والهضاب ، حتى انقطع عنهما الطلب وتم لهما ، ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق .

ان حياة النبي صلى الله عليه وسلم اعظم مثال يجب ان يحتذيه المسلمون للوصول الى التخلق باشرف الاخلاق والتحلي باكرم الخصال ، واحسن مدرسة يجب ان يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول والاخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة الى النجاح وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل .

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان وحكماء الرومان وعلماء الافرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل، والبر والثبات والحب والرحمة ، والحكمة والسياسة ، والشرف الحقيقي ، والإنسانية الكاملة ، وهي حياة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحسبنا بها وكفى .

الانصاف

اذا كان لك صديق تحبه وتواليه ، ثم هجمت منه على مـا لم يحـل في نظرك ، ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطرد عندك من أعماله ، او كان لك عدو تذم طباعه ، وتنقم منه شئونه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذة صديقك عـلى الخصلة التي ذممتها وحمد عدوك على الخلة التي حمدتها ، عدك الناس متلوناً او مخادعاً او ذا وجهين تمدح اليوم من تذم بالأمس ، وتـذم في ساعة من تمـدح في أخرى ، وقالوا : إنـك تظهر ما لا تضمر ، وتخفي غـير الذي تبدي ، ولو أنصفوك لأعجبوا بـك وبصدقك ، ولأكبروا سلامـة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسموا مـا بـدا لهم منك اعتدالا لا نفاقـاً ، وإنصافاً لا خداعاً ، لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤيـة عيوبـه ، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف ، فعنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لاصلاح ما فسد من الاولى ، واعوج من الاخرى .

- إن صديقك الذي يبسم لـك في حـالي رضـاك وغضبك ، وحلمـك وجهلـك ، وصوابك وسقطـك ، ليس ممن يغتبط بمودتـه ، او يوثـق بصداقته ، لانه لا يصلح ان يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك ، وتصدقك عن زينـك وشينك وحـلوك ومرك ، وهو إمـا جاهل متهور في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد ان ترى نفسه ، لا ما لا يجب ان تراه ؛ وإما منافق مخادع قـد عـلم ان هواك في الصمت عن عيوبك وتجرير الذيول ، فجاراك فيا تريد ، ليبلغ منك ما يريد .

فها انت ذا ترى ان الناس يعكسون القضايا ، ويقبلون الحقائق ، فيسمون الصادق كاذبا ، والكاذب صادقاً ؛ ولكن الناس لا يعلمون .

المدنية الغربية

سأودع في هذه النظرة الخيال والشعر ، وداع من يعلم ان الامر أعظم شاناً وأجل خطراً من ان يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جده وعمله .

ان في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها الى أخلافنا من بعدنا ، كما أداها الينا أسلافنا سالمة غير ماروضة [1] ولا متآكلة ، فان فعلنا فذاك ، أولا فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على الكتاب الأمناء .

الامة المصرية أمة مسلمة شرقية ،فيجب ان يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها ، وذهبت أهرامها في سمائها ، حتى تبدل الارض غير الارض والسموات .

---

(١) الخشب المأروض : الذي أكلته الأرضة .

ان خطوة واحدة يخطوها المصري الى الغرب تدني اليه أجله ، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده الى يوم يبعثون .

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم ان يكون من المدنية الغربية ان داناها الا كالغربال من دقيق الخبز ، يمسك خشاره ويفلت لبابه ، او الراووق [1] من الخمر ، يحتفظ بعقاره ، ويستهين برحيقه ، فخير له ان يتجنبها جهده ، وان يفر منها فرار السليم من الاجرب .

يريد المصري ان يقلد الغربي في نشاطه وخفته ، فلا ينشط الا في غدواته وروحاته ، وقعدته وقومته ، فاذا جد الجد وأراد نفسه على ان يعمل عملاً من الاعمال المحتاجة الى قليل من الصبر والجلد ، دب الملل الى نفسه دبيب الصهباء في الاعضاء والكرى بين أهداب الجفون .

يريد ان يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منها الا ان الاولى التأنث في الحركات ، الثانية الاختلاف الى مواطن الفسق ومخابىء الفجور .

يريد ان يقلده في الوطنية فلا ياخذ منها الا نعيقها ونعيبها ، وضجيجها وصفيرها ، فاذا قيل له : هذه المقدمات ، فاين النتائج ؟ أسلم رجليه الى الرياح الاربع واستن في فراره استنان المهر الأرن [2] فاذا سمع صفير الصافر مات وجلاً ، واذا رأى غير شيء ظنه رجلاً .

يريد ان يقلده في السياحة ، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب

(١) الراووق ، المصفاة .
(٢) الأرن ، النشيط .

الارض الميتة فصل الربيع ، حتى اذا حان حينه طار الى مدن أوربا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ، حتى يقع على مجامع اللهو ومكان الفجور ، وملاعب القمار ، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الاول ما يقوده الى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا من الثاني اكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته ،حادثة عودته موشاة بجمل الاجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والاعظام .

يريد ان يقلده في العلم ، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل شائن .

يريد ان يقلده في الاحسان والبر ، فيترك جيرانه وجارته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي أو كارثة ألمت بسد يأجوج ومأجوج سجل اسمه في فاتحة الاكتتاب ، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب .

يريد ان يقلده في تعليم المرأة وتربيتها ، فيقنعه من علمها مقال تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن تربيتها التفنن في الازياء ، والمقدرة على استهواء النفوس ، واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة

لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحي بها مقصداً ، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب ، وقلوبهم ملأى بالأقـذار والأكـدار ، ويجـارونهم في أداء صور العبادات ، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر في ترقيع الثياب ، وإن كانوا احرص على الدنيا من صيارفة اليهود .

أما شانه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي ،فينتحر كما ينتحر الغربي ، ويلحـد كـما يلحد ، ويستهتر في الفسوق استهتاره ، ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمة في اخلاقهم وطباعهم،ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحهـا ، فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلا بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرا ونيويورك ،وان دعوناهم الى مكرمة ، فلنتـل عليهم آيات الكتب المنزلة ، وأقوال أنبيـاء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر ، وان دعوناهم الى حرب ، ففي تاريـخ خـالد بن الوليد وسعيـد بن أبي وقاص وموسى بن نصـير ، وصـلاح الدين ، مـا يغنينـا عن تاريخ نابليون وولنجتون وواشنطون ونلسن وبلوخر ، وفي وقائـع القادسية وعمورية وأفريقية والحروب الصليبية ، ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واوسترليتز

والسبعين .

ان عاراً على التاريخ المصري ان يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية ، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادىء ديكارت وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهوجو ما لا يروي للمتنبي والمعري.

لا مانع من ان يعرب لنا المعربون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعرائهم ، على ان ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوراً ، ولا مانع من ان ينقل الينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيتهم ، على ان ننظر اليه نظر من يريد التبسط في العلم والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على ان نقلدها ونتقلدها وننتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شئوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد . فليعلم كتاب هذه الامة وقادتها :أنه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً . فلا يخدعون أمتهم عن نفسها ، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها ، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي ، بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي . .

يوم الحساب

ساهرت الكوكب ليلة أمس حتى ملني ومللته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، وقد وقف الهم بيني وبين الكرى أجذبه فيدفعه ، وأدنيه فيبعده ، حتى أسلس قياده ، وسكن جماحه .

لم تخالط جفني سنة الكرى حتى خيل الي أني قد انتقلت من العالم الاول الى العالم الثاني ، ورأيت كاني بعثت بعد الموت وكان أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على اعمالهم ، فالهمت أنه موقف الحشر ، وأنه يوم الحساب .

وأنشات أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، ولا أجد من ياخذ بيدي ويدلني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه ، ضلا يجد اليها سبيلا ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ، علني أجد صديقاً أستانس به في وحدتي ، وأستعين برافقته على وحشتي ، فلا أرى الا خلقاً غريباً

ومنظراً عجيباً ، ووجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريباً ، ولو لا أني أعلم ان الحساب خاص بالانسان لظننت ان الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان .

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي رأيت على البعد وجهاً يبتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً ، فارقلت نحوه حتى بلغته فاذا صديقي « فلان » واذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء ، فسألته ما فعل الله به ؟ فقال حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي ، وها أنذا ذاهب الى ما أعد الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم ، فعجبت لشأنه وقلت في نفسي : لقد هان أمر الحساب على كل عاص بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه : لا يتقي مأثماً ، ولا يهاب منكراً ، ولا يخرج من حان الا الى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق الا على موعد من اللقاء ، فنظر الي نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها ان الرجل قد ألم بما ضمرته في نفسي ، فذكرت ان قد كشف الغطاء في هذه الدار ، وان قد رفع الحجاب بين الناس : فلا سر ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان وخطرات الجنان ، نظر الي تلك النظرة وقال : لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب ، واعلم ان الله حاسبني على كل ما كنت أجترح من الآثام في الدار الأولى ، الا أنه وجد لي في جريدة حسناتي حسنة ذهبت بجميع السيئات : ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر ، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله ، فاهمني أمره وأزعجني ان أراه في مستقبل

ايامه بائساً معدماً ، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يسدي اليهم نعمته ، فاحتلت على ان ادخل في بيته خادماً كانت في بيتي وجعلت لها جعلاً على ان تدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأتاها ، ولا يقف على سرها ، وما زال هذا شاني وشانه ، لا يعلم من اين يأتيه رزقه ، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرق الموت بيني وبينه ، فما نفعني عمل من اعمالي ما نفعني هذا العمل ، وما كان الاحسان وحده سبب سعادتي ، بل كان سببها أنه اصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت اليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة . فقال : اما الوحشة فلن أفارقك حتى يأتي دورك ، اما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شانك ، فقلت : انت من السعداء ، فهل تستطيع ان تشفع لي او تطلب لي شفاعة من ولي من الأولياء او نبي من الأنبياء ؟ قال : لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخدوعين في الدار الاولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها لنا تجار الدين بثمن غال ولا يتقوت الله في غشنا وخداعنا ، وما الشفاعة الا مظهر من مظاهر الاكرام والتبجيل يختص به الله بعض المقربين ، فلا يشفع عنده احد الا بإذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد الا اذا كان بين اعمال المشفوع له او في اعمال سريرته ما يقتضي إيثاره بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى اجل من العبث وأرفع من المحاباة .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة

العذاب تحيط برجل يساق الى النار ، ورأينا في يد كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه،وهو يصرخ ويقول: « أهلكتني يا أبا حنيفة » فسألت صاحبي : ما ذنب الرجل ؟ فقال : انه كان في حياته يتخذ في اعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية » فكان يهب ما لأحد أولاده على نية استرداده قبل ان يحول عليه الحول ، ليتخلص من فريضة الزكاة ،ويطلق زوجته ثلاثا ، ثم ياتي بمحلل يحللها له فيعود الى معاشرتها ، وكان يرابى باسم الرهن ، فاذا جاءه من يريد ان يقترض منه مالا أبى ان يقرضه الا اذا وضع في يده رهناً ، فاذا وضع يده على ضيعته ألزمه ان يستاجرها منه بمال كثير يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح واصل المال ، وكان اذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته ، او لا ياكل رغيفاً أكله الا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد الى الاحكام الشرعية فينتزع منها حكمها واسرارها ، ثم يرفعها الى الله قشوراً جوفاء ليخدعه بها ويغشه فيها كما يفعل مع الاطفال والبله ، مستنداً على تقليد أبي حنيفة او غيره من كبار الأئمة ، وابو حنيفة ارفع قدراً وأهدى بصيرة ، من ان يتخذ هزؤاً وسخرية ، وان يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين .

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي ، حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثة ، قد احاط به ملكان وشدا عنقه بسبحة طويلة ذات حبات كبيرة ، وقد اخذ كل منهما بطرف منها ، وهو يهمهم بكلمات مبهمة فيقرعه احدهما على رأسه ويقول له : « أمكر وانت في الحديد ؟» فدنوت منه وانعمت النظر في وجهه فعرفته ، فتراجعت ذعراً وخوفاً وصحت

ايكون هذا من اشقياء الآخرة ، وقد كان بالأمس من أقطاب الاولى ! فقال لي صاحبي : ان هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الاقطاب كان اكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسبحة والمهمة الا حبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس واموالهم ، ولكن الناس لا يعلمون .

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يرون بنا : هذا الى جنته ، وذاك الى ناره، وانا اسأل عن شان كل منهم واحداً فواحداً فارى سعيداً من كنت احسبه شقياً ، وشقياً من كنت احسبه سعيداً ، فسجلت ان الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس على قلوبهم ، لا على جوارحهم ، ويسالهم عن نياتهم ، لا عن افعالهم ، وان لا سعادة الا الصدق ، ولا شقاء الا الكذب ، وعلمت ان الله لا يغفر من السيئات الا ما كان هفوة من الهفوات ، يلم بها صاحبها إلماماً ،ثم يندم عليها ،ورأيت ان اكبر ما يعاقب عليه جناية المرء على اخيه بسفك دمه او هتك عرضه او سلب ماله، وان اضعف الوسائل الى الله ذلك الركوع والسجود ، والقيام والقعود ، فلو ان امرأ قضى حياته بين ليل قائم ، ونهار صائم ، ظلم طفلاً صغيراً في لقمة يختطفها من يده لاستحالت حسناته الى سيئات، وما اغنى عنه نسكه من الله شيئاً .

وبينما انا احدث نفسي بهذا الحديث ، واقلب النظر في وجوه تلك المواعظ والعبر ، اذ قال لي صاحبي : اتعرف هذين ؟ واشار الى رجلين واقفين ناحية يتناجيان : احدهما شيخ جليل ابيض اللحية ، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ، فما هي الا النظرة الاولى حتى

عرفت الرجلين العظيمين رجل الإسلام « محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم امين » فقلت لصاحبي : هل لك في ان ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعران ؟ ففعلنا ، فسمعنا الاول يقول للثاني : ليتك يا قاسم اخذت برأيي واحللت نصحي لك محلاً من نفسك فقد كنت أنهاك ان تفاجىء المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل ان تأخذ له عدته من الأدب والدين فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبذلها واراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياء ، فقال له صاحبه : اني اشرت عليها ان تتعلم قبل ان تسفر ، وان لا ترفع برقعها قبل ان تنسج لها برقعاً من الادب والحياء ، قال له : ولكن فاتك ما كنت تنبأت به من انها جاهلة لا تفهم هذه التفاصيل ، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء ، فكنت كمن أعطى الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فقتل نفسه ، فقال : اتأذن لي يا مولاي ان اقول لك : انك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ ، وانك نصحتني بما لم تنتصح به ، انا اردت ان انصح المرأة فافسدتها كما تقول . وانت اردت ان تحيي الإسلام فقتلته ، انك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فارادوا غير ما اردت ، وفهموا غير ما فهمت . فاصبحوا ملحدين ، بعد ان كانوا مخرفين ، وانت تعلم ان ديناً خرافياً خير من لا دين . اولت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى اولوا الملك والشيطان والجنة والنار ! وبينت لهم حكم العبادات واسرارها وسفهت لهم رأيهم في الاخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها

جملة واحدة وقلت لهم : ان الولي اله باطل ، والله اله حق ، فانكروا الالوهية حقها وباطلها ، فتهلل وجه الشيخ وقال له : ما زلت يا قاسم في اخراك ، مثلك في دنياك ، لا تضطرب في حجة ، ولا تنام عن ثار ، لا تحمل هما ، ولا تخش شراً ، وثق ان الله سيحاسبنا على نياتنا وسرائرنا، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا ، انا ما اردنا الا الخير لامتنا ، وما اردنا لها الا ما تحتمله عقولها ، فان كذبت فراستنا او اخطا تقديرنا فذلك لان المستقبل بيد الله .

وما وصلا من حديثهما الى هذا الحد حتى تركا مكانهما ، وذهبا لشانهما، فقلت لصاحبي : هل لك ان تريني الميزان والصراط والجنة والنار ، فاني ما زلت في شوق الى رؤية تلك الاشياء ورؤية مواقعها منذ رأيتها في « خريطة الآخرة » التي رسمها الشعراني في بعض كتبه ، قال : اما الميزان فتقدير الاعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، واما الصراط فهو سبيل الانسان الى سعادته او شقائه ، واما الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما .

وبينا انا كذلك اذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي ، فعلمت ان قد جاء دوري ، فادركني من الهول والرعب ما ايقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً ولا موقفاً ولا محشراً ، فعلمت انها خيالات واوهام ، او اضغاث احلام ، وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين .

الشعرة البيضاء

مررت صباح اليوم امام المرآة،فلمحت في رأسي شعرة بيضاء ، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء .

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي [1] فارتعت لمرآها كانما خيل الي انها سيف جرده القضاء على رأسي ، او علم ابيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب ينذرني باقتراب الاجل ، او ياس قاتل عرض دون الامل ، او جذوة نار علقت باهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولا بد لها مهما ترفقت في مشيتها واتأدت في مسيرها من ان تبلغ مداها ، او من خيط خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعده لباساً لجثتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل .

ايتها الشعرة البيضاء ! ما رأيت بياضاً اشبه بالسواد من بياضك ، ولا نوراً اقرب الى الظلمة من نورك ، لقد ابغضت من اجلك كل بياض

(١) المفرق : موضع افتراق الشعر .

حتى بياض القمر ، وكل نور حتى نور البصر واحببت فيك كل سواد حتى سواد الغربان وكل ظلام حتى ظلام الوجدان .

أيتها الشعرة البيضاء ! ليت شعري ! من أي نافذة خلصت الى رأسي ؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت الى فودي ؟

كيف طاب لك المقام في هذه الارض الموحشة التي لا تجدين فيها انيساً يسامرك ، ولا جليساً يساهرك ، وكيف لم يرع قلبك لمنظر هذا الليل الفاحم ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم .

أيتها الشعرة البيضاء ! لقد عييت بامرك ، وبعلت [1] بحملك ، واصبحت لا اعرف وجه الحيلة في البعد عنك ، والفرار من وجهك ، لا ينفعني معك ان انزعك من مكانك ، لأنك لا تلبثين ان تعودي اليه ، ولا ينقذني منك ان اخضبك بالسواد ، لأنك لا تلبثين ان تنصلي [2] ولاني لا احب ان اجمع على نفسي بين مصيبتين : مصيبة الشيب ومصيبة الكذب.

أيتها الشعرة البيضاء ! يخيل الي وانا انظر اليك انك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث ، وانك تهمسين في آذان اخواتك السود اللواتي بجانبك تحاولين إغراءهن بالتشبه بك ، والتردي بردائك ، وكاني بك .. وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة المطمئنة حرباً شعواء ، وفتنة عمياء ، يختلط فيها الرامح بالنابل [3] والدارع بالحاسر [4] ويهلك فيها القاعد والقائم والمظلوم والظالم ..

---

(١) بعل الشيء : برم به واستثقله . (٢) نصل الشعر : خرج من الخضاب .
(٣) الرامح : حامل الرمح . والنابل : ذو النبل .
(٤) الدارع : لابس الدرع ، والحاسر خلافه .

ان كان هذا مصيرك فسيكون شانك شان ذلك السائح الابيض، الذي ينزل بامة الزنج مستكشفاً ، فيصبح مستعمراً ، ويدخل ارضها سلماً ويفارقها حرباً ، فاسال الله لرأسي العافية منك ، ولأمة الزنج السلامة من صاحبك ، فكلاهما مشؤوم الطلعة في مقامه وارتحاله ، وكوكب النحس في وقوفه وتسياره .

أيتها الشعرة البيضاء ! ما انت وما شانك ؟ وما وفودك الي ؟ وما مكانك مني ؟ وما مقامك عندي ؟ ان كنت ضيفاً ، فاين استئذان الضيف وتلطفه ، وتجمله وتودده ، وان كنت نذيراً ، فأنا اعلم من الموت وشانه ما لا احتاج معه الى نذير ، فلم يبق الا تكوني اوقح الخلائق وجهاً ، واصلبها خداً ، وانك قد نزلت من السماجة والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهاً الا تلك الحية التي تلج كل جحر من اجحار الهوام والحشرات تعده جحرها ، وتحسبه بيتها .

أيبلغ بك الشان وانت التي يضربون الامثال بدقتها وخفائها ، ويبعثون الملاقط والمقاريض وراءها ، فلا يكادون يعرفون السبيل الى مدارجها ومكانها ان تملئي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد ، ولا السهم المسدد ؟

أيتها الشعرة البيضاء ! هل لك ان تتجاوزي عما اسات به اليك في إطالة عتبك ، واستثقال ظلك ؟ فلقد رجعت الى نفسي فعلمت انك اكرم الخلائق عندي ، واعظمها شاناً في عيني .

هنيئاً لك رأسي مصيفاً ومرتعاً ،وهنيئاً لك فودي مراداً ومسرحاً،

فانت رسول الموت الذي ما زلت اطلبه منذ عرفته فلا اجد له سبيلاً ، ولا اعرف له رسولاً .

ما الذي يحمله لك في صدره من الحقد والموجدة رجل لم ينعم بشبابه، فيحزن على ذهابه ، ولم يذق حلاوة الحياة ، فيجزع لمرارة الممات ، ولم يستنشق نسمات السعادة غصناً رطباً ، فياسى عليها عوداً يابساً .

ما الذي ينقمه من شؤونك رجل يعلم انك وحي الامل الذي يبشره بقرب النجاة من حياة ليس فيها من السعادة والهناءة .. الا لحظات قليلة يكدرها ما يحيط بها من الهموم والأحزان .. كما تكدر أنفاس الحزن الحارة صفحة المرآة .

أليس كل ما أعده عليك من الذنوب انك طليعة الموت ، والموت هو الذي يخلصني من منظر هذا العالم المملوء بالشرور والآثام ، الحافل بالآلام والأسقام الذي لا اغمض عيني فيه الا لأفتحها على صديق يغدر بصديقه ، وأخ يخون اخاه ، وعشير يحدد أنيابه لمضغ عشيره ، وغني يضن على الفقير بفتات مائدته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة الموت فلا يظفر بأمنيته ، وملك لا يفرق بين رعيته وماشيته ، ومملوك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته ، وقلوب تضطرم حقداً على غير طائل ، ونفوس تتفانى قتلا على لون حائل ، وظل زائل ، وغرض باطل ، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها وانياب تمزقها ، وعيون حائرة في رؤوس طائرة ، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ما امامها ، ان كان هذا هو ظاهر ذنبك عندي فاستكثري من ذنوبك ،

فاني لك من الغافرين .

أيتها الشعرة البيضاء ! مرحباً بك اليوم ، ومرحباً باخواتك غداً .. ومرحباً بهـذا القضـاء المختبىء وراءك او الكامن في اطوائك ، ومرحباً بتلك الغرفة الـتي اخـلو فيها بربي ، وآنس بنفسي ، من حيث لا أسمع حتى دوي المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلا بوافده للشيب واحدة وان تراءت بشكل غير مودود .

الصياد

حدث احد الاصدقاء قال : بينـا انا في منزلي صبيحة يوم إذ دخـل علي رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة فعرضها علي فلم اساومه فيها بـل نقدته الثمن الذي أراده ، فـاخذه شاكراً متهللاً وقال : هذه هي المرة الأولى الـتي اخذت فيهـا الثمن الذي اقترحته ، احسن الله اليك كما احسنت الي وجعلك سعيداً في نفسك كما جعلك سعيداً في مالك ، فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت في ان تتفتح لها إبواب السماء المغلقة دوني ، وعجبت ان يهتـدي شيـخ عامي الى معرفة حقيقـة لا يعرفها الا القليـل من الخاصة ، وهي ان للسعادة النفسية شانـاً غـير شأن السعادة المالية ، فقلت له : يا شيخ ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال ؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : لو كانت الـسعادة سعادة المال لكنت انا اشقى الناس ، لأنني افقر الناس ، قلت : هل تعد نفسك سعيداً ؟ قال : نعم ، لأنني قانـع برزقي مغتبط بعيشي ، لا احزن عـلى فائت من العيش ، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطمع من المطامع ، فمن أي باب يخلص الشقاء

الى قلبي ؟ قلت : أيها الرجل ، اين يذهب بك ؟ ما أرى الا انك شيخ قد اختلس عقله ، كيف تعد نفسك سعيداً وانت حاف غير منتعل ، وعار الا قليلا من الأسمال البالية ، والاطمار السحيقة ؟ قال : ان كانت السعادة لذة النفس وراحتها ، وكان الشقاء ألمها وعناءها ، فأنا سعيد ، لأني لا اجد في رثاثة ملبسي ، ولا في خشونة عيشي ، ما يولد لي ألماً ، او يسبب لي هماً ، وان كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك ، فانا لا افهمها الا كذلك. قلت : ألا يحزنك النظر الى الاغنياء في أثاثهم ورياشهم ، وقصورهم ومراكبهم ، وخدمهم وخيولهم ، ومطعمهم ومشربهم ؟ ألا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ؟ قال : إنما يصغر جميع هذه المناظر في عيني ويهونها عندي أني لا اجد اصحابها قد نالوا من السعادة بوجدانها اكثر مما نلته بفقدانها .

هذه المطاعم التي تذكرها ان كان الغرض منها الامتلاء فانا لا اذكر أني بت ليلة في حياتي جائعاً ، وان كان الغرض منها قضاء شهوة النفس فانا لا آكل الا اذا جعت ، فاجد لكل ما يدخل جوفي لذة لا أحسب ان في شهوات الطعام ما يفضلها ، أما القصور فإن لدي كوخاً صغيراً لا أشعر أنه يضيق بي وبزوجتي وولدي فاقرع السن على ان لم يكن قصراً كبيراً ، وان كان لا بد من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة فحسبي ان أحمل شبكتي على عاتقي كل مطلع فجر واذهب بها الى شاطىء النهر فارى منظر السماء والماء ، والاشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هي الا لفتة الجيد ان يطلع من ناحية الشرق قرص الشمس كأنه مجن من ذهب او

قطعة من لهب ، فلا يبعد عن خط الافق ميلا او ميلين حتى ينثر فوق سطح النهر حليه المتكسر، او دره المتحدر ، فاذا تجلى هذا المنظر أمام عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها ، ملك علي شعوري ووجداني ، فاستغرقت فيه استغراق النائم في الأحلام اللذيذة ، حتى أحب ان اعود الى نفسي الى يوم النشور ، ولا ازال هكذا هائماً في أحلامي حتى اشعر بجذبة قوية في يدي ، فانتبه فاذا السمك في الشبكة يضطرب ، وما ضطرابه الا أنه فارق الفضاء الذي يهيم فيه مطلق السراح ، وبات في لحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا مضطرباً ، فلا اجد له شبيهاً في حالتيه لا الفقراء والاغنياء . يمشي الفقير كما يشتهي ويتنقل حيث يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له التغريد والتنقير ، ولولا ان تتخطاه العيون وتنبو عنه النواظر ما طار في كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء ، أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من الأحداق نطاق ، ومن الأرصاد أغلال وأطواق ، ولا يخرج من منزله إلا اذا وقف أمام المرآة ساعة يؤلف فيها من حقيقته وخياله ناظراً ومنظوراً ، ثم يطيل التفكير : هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً ؟ حتى اذا استوثق لنفسه بذلك خرج الى الناس يمشي بينهم مشية يحرص فيها على الصورة التي استقر رأيه عليها ، فلا يطلق لجسمه الحرية في الحركة والالتفات ، حتى لا يخرج بذلك عن حكمها ، ولا لفكره الحرية في النظر والاعتبار بشاهدة الكون وآياته ، مخافة ان يغفل عن اشارات السلام ، ومظاهر الإكرام .

فاذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت به وبعته في الاسواق او على أبواب المنازل ، فاذا أدبر النهار عدت الى منزلي ، فيعتنقني ولدي وتبش في وجهي زوجتي ، فاذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة حق ربي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة ، لا أحتاج معها الى ديباج وحرير او مهد وثير ، فهل أستطيع ان أعد نفسي شقياً ، وأنا أروح الناس بالاً ، وان كنت أقلهم مالاً ؟

لا فرق بيني وبين الغني ، إلا ان الناس لا ينهضون إجلالاً لي اذا رأوني ولا يمدون أعناقهم نحوي اذا مررت بهم ، وأهون به من فرق لا قيمة له عندي ، ولا أثر له في نفسي ، وما يعنيني من أمرهم ان قاموا او قعدوا ، او طاروا في الهواء ، او غاصوا في أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم ، وما دمت لا أنظر اليهم الا بالعين التي ينظر بها الإنسان الى الصور المتحركة .

لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم الا تلك العلاقة بيني وبين ربي فانا أعبده حق عبادته وأخلص في توحيده ، فلا أعتقد ربوبية أحد سواه ، ولا أكتمك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمع بين توحيد الله والاعتراف بالعظمة لاحد من الناس ، ولقد اخذ هذا اليقين مكانه من قلبي ، حتى لو طلع على الملك المتوج في مواكبه وكواكبه ، وراياته وأعلامه ، لما خفق قلبي خفقة الرهبة والخشية ، ولا شغل من نفسي مكاناً اكثر مما يشغله ملك التمثيل .

ولقد كان هذا اليقين اكبر سبب في عزائي ، وراحة نفسي من

الهموم والاحزان ، فما نزلت بي ضائقة ولا هبت علي عاصفة من عواصف هذا الكون الا انتزعني من بين مخالبها وهونها علي ، حتى لا أكاد اشعر بوقعها ، وكيف أتالم لمصاب أنا اعلم حق العلم أنه مقدور لا مفر منه ، وأنني ماجور عليه على قدر احتمالي إياه ، وسكوني اليه ؟

آمنت بالقضاء والقدر خيره وشره ، وباليوم الآخر ثوابه وعقابه ، فصغرت الدنيا في عيني ، وصغر شانها عندي حتى ما افرح بخيرها ، ولا احزن لشرها ، ولا أعول على شان من شئونها حتى شان الحياة فيها ، وأقسم ما خرجت مرة الى ضفة النهر حاملا شبكتي فوق عاتقي الا وقع الشك في نفسي : هل اعود الى منزلي حاملا او محمولاً ؟

ما العالم الا بحر زاخر ، وما الناس الا اسماكه المائجة فيه . وما ريب المنون الا صياد يحمل شبكته كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتمسك ما تمسك وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً ، فكيف اغتبط بما لا املك ، او اعتمد على غير معتمد ، إذن أنا اضل الناس عقلا واضعفهم إيماناً !

قال المحدث : فاكبرت الرجل في نفسي كل الاكبار ، واعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه . وقلت له : يا شيخ ان الناس جميعاً يبكون على السعادة ويفتشون عنها فلا يجدونها . فاستقر رأيهم على ان الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعد العالم سعيداً وما هو إلا شقاء ؟ قال : لا يا سيدي ، ان الإنسان سعيد بفطرته ، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء الى نفسه ، يشتد طمعه في المال فيتعذر عليه مطمعه ، فيطول بكاؤه وعناؤه ،

ويعتقد ان بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه ، فاذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه ، ان وشكا شكاة المظلوم من الظالم ، ويبالغ في حسن ظنه بالأيام ، فاذا غدرت به في محبوب لديه من مال او ولد ، فاجاه من ذلك ما لم يكن يقدر وقوعه فناله من الهم والألم ما لم يكن لينالة لو خبر الدهر ، وقتل الايام علماً وتجربة وعرف ان جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ، ووديعة موقوتة ، وان هذا الإحراز الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة ووهم من أوهامها .. ان اكثر ما يصيب النـاس من شقوة إنما يأتي من طريـق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتالم كلما وقع نظره على محسود ، والحقود يتالم كلما تذكر أنـه عاجز عن الانتقام من عـدوه ، والطماع يتالم كلما ناجته بالإثم سريرته ، والظالم يتالم كلما سمع ابتهال المظلوم بالدعاء عليه ، او حاقت به عاقبة ظلمه ، وكذلك شان الكاذب والنام والمغتاب ، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائـل .

ومن أراد ان يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، والا فهو أشقى العالمين ، وان احرز ذخائر الارض وخزائن السماء .

قال الصديق : فما وصل الصياد من حديثه الى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه وقال : استودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك واحببتها لك ، وهي : ان يجعلك الله سعيداً في نفسك ، كما جعلك سعيداً في مالك ..

والسلام عليك ورحمة الله .

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والراسبين ، ولو ربي التلميذ تربية دينية لما هان عليه ان يخسر سعادته الأخروية خسرانا مبينا أسفاً على ان لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية ، ولو ربي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لانها لم تقدم اليه في لفافة الشهادة المدرسية ، ولو ان أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه : أن جناية المرء على نفسه اكبر إثماً عند الله واعظم جرماً من جنايته على غيره ، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته ، وهي الساعة التي ينيب فيها العاصي الى ربه ، ويستغفر فيها المذنب من ذنبه . ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الاخلاق والآداب ان العلم صفة من صفات الكمال لا سلعة من سلع التجارة يجب ان ينظر اليه طالبه من حيث ذاته ، لامن حيث كونه وسيلة من وسائل العيش ، لما جرى على القاعدة الفاسدة « والشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ولو أنه رباه

على الاستقلال الذاتي وعلمه ان الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الامة او المجتمع سواء أكان في قصر الملك أم في دار الوزارة ، وفي حانوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما اكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار ، ولا احتفل بها احتفال من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية وعوده الصبر والجلد في مواقف الشدة والبلاء ، لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه ان عذاب النزع أهون من عذاب الهم .

لا يجني الطالب على نفسه ، وإنما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه .

أما الوالد فانه يقول له وهو ذاهب به الى المدرسة : ستكون غداً يا بني مديراً كهذا المدير ، ووزيراً كهذا الوزير ، وكلما أراد ان يحضه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة فشله في الامتحان صور له المستقبل المجرد من الوظيفة أقبح تصوير وأشنعه ، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي فيقول له : اذا لم تنجح في الامتحان فموتك أفضل من حياتك ، أما الاستاذ فانه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني ، إذ يراه بعينه يتجرع مرارة الذل ، ويعاني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً ، ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف، حرصاً على منصبه وإرعاء عليه . فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه « ان من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته ، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة » ،

أما المجتمع فانه يحترم الموظف الصغير ، اكثر مما يحترم العالم الكبير ، ويطير الى تهنئته بإقبال المنصب عليه وتعزيته يوم إدباره عنه ، كأن الكوكب لا يدور الا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ، فاذا رأى الناشيء ذلك اكبر الوظيفة أيما إكبار ، ولج به الحرص عليها والتصق بها وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه ، او بعدها عنه ، فاذا وفق اليها لطم بانفه قبة السماء . وداس بنعله هام الجوزاء ، وان يئس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول الشاعر الاحمق :

* فإما الثريا وإما الثرى *

أيها الناشيء : لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخدعك هذا المجتمع الفاسد ، فكن احسن حالاً منهم ، واعلم ان شرف العلم اكبر من شرف المنصب . وان المنصب ما كان شريفاً الا لانه حسنة من حسنات العلم ، وأثر من آثاره ، فان فاتك حظك منه فلا تحفل به ، فهو أحقر من ان تشتد في أثره ، او تبذل حياتك وجداً عليه ، ولا تحسد ارباب المناصب على مناصبهم ، فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول ، وظاهر من النعمة ، وبهرج من الابتسام ، ووراء ذلك لو علمت قلب يقطر دماً ، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى .

خذ لنفسك حظها من العلم والادب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء .

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة ، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات ، وفي الحقائق أم في الخيالات .

ما كان الوجه الجميل جميلاً الا للتناسب بين اجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلاً الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات العقد ما افتتنت به الحسناء ، ولولا التناسق في ازهار الروض ما هام به الشعراء .

ليس للتناسب قاعدة مضطردة يستطيع الكاتب ان يبينها ،فالتناسب في المرئيات غيره في المسموعات ، وفي الرسوم غيره في الخطوط ، وفي الشئون العلمية غيره في القصائد الشعرية ، على أنه لا حاجة الى بيانه ما دامت الاذواق السليمة تدرك بفطرتها ما يلائمها فترتاح اليه ، وما لا يلائمها فتنفر منه .

ان كثيراً من الناس يستحسنون الانف الصغير في الوجه الكبير والرأس الكبير في الجسم الصغير ، ولا يفرقون بين البرص في الجسم

الاسود ، والخال في الخد الابيض ، ويطربون لنقيق الضفادع كما يطربون لخرير المياه ، ويفضلون أصوات النواعير على أنغام العيدان ، ويعجبون بشعر ابن الفارض وابن معتوق والبرعي اكثر مما يعجبون بشعر أبي الطيب وأبي تمام والبحتري، ويضحكون لما يبكي، ويبكون مما يضحك ، ويرضون بما يغضب ، ويغضبون مما يرضى !

اولئك هم اصحاب الاذواق المريضة ، واولئك هم الذين تصدر عنهم افعالهم واقوالهم مشوهة غير متناسبة ولا متلائمة ، لانهم لم يدركوا سر الجمال فيصدر عنهم ولم تألفه نفوسهم ، فيصبح غريزة من غرائزهم .

ان رأيت شاعراً يبتدىء قصائد التهنئة بالبكاء على الاطلال ،ويودع القصائد الرثائية بالنكات الهزلية ، ويتغزل بممدوحه كما يتغزل بمعشوقه ، او متكلما يقتضب الاحاديث اقتضابا ، ويهزل في موضع الجد ، ويجد في موضع الهزل ، او صحفيا يضع العنوان الضخم للخبر التافه ، ويكتب مقدمة في السماء لموضوع في الارض ، او حاكما يضع الندى في موضع السيف ، والسيف في موضع الندى ، او ماشياً يتلوى في طريقه من رصيف الى رصيف ، كأنما يرسم خطاً متعرجاً ، او لابساً في الشتاء غلالة الصيف ، وفي الصيف فروة الشتاء ، فاعلم ان ذوقه مريض ، وأنه في حاجة الى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون الى علاج عقله ، والمريض الى علاج جسمه .

كما أنه ليس كل مجنون يرجى شفاؤه ، ولا كل مريض يرجى ابلاله ،

كذلك ليس كل من فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فان رأيت من تؤمل في اصلاحه خيراً ، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه ، فعلاجه ان تحفه بانواع الجمال ، وتدأب على تنبيهه الى متناسباته ومؤتلفاته ، وان استطعت ان تعلمه فناً من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل ، فانها المقومات للأذواق ، والغارسات في النفوس ملكات الجمال .

الكذب

كذب اللسان من فضول كذب القلب ، فلا تامن الكاذب على ود ولا تثق منه بعهد ، واهرب من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من خلطائك وسجرائك : الرجل الكاذب .

عرف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام للواقع ، ولعلهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية ، ولو شاءوا لأضافوا الى كذب الاقوال كذب الافعال .

لا فرق بين كذب الاقوال وكذب الافعال في تضليل العقول والعبث بالأهواء وخذلان الحق واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين ان يكذب الرجل فيقول : إني ثقة أمين لا أخون ولا أغدر فاقرضني مالا أرده إليك ، ثم لا يؤديه بعد ذلك ، وبين ان يأتيك بسبحة يهمهم بها فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء ، فيخدعك في الثانية كما خدعك في الأولى ، لا بل يستطيع كاذب الافعال ان يخدعك

ألف مرة قبل ان يخدعك كاذب الأقوال مرة واحدة لأنه لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته بينة كاذبة من جميع حركاته وسكناته

ليس الكذب شيئاً يستهان به ، فهو أس الشرور ورذيلة الرذائل، فكانه أصل والرذائل فروع له ، بل هو الرذائل نفسها . وإنما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثل في صور متنوعة .

المنافق كاذب لان لسانه ينطق بغير ما في قلبه ، والمتكبر كاذب لانه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته . والفاسق كاذب لانه كذب في دعوى الإيمان ونقض ما عاهد الله عليه ، والنمام كاذب لانه لم يتق الله في فتنته ، فيتحرى الصدق في نميمته ، والمتملق كاذب لان ظاهره ينفعك ، وباطنه يلذعك .

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات وتتحدث بخوارق العادات .

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ، وويل له من صديق يخون العهد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غير أمين ، وجاهل يفشي السر ، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه ، وشيخ يدعي الولاية كذباً ، وتاجر يغشُّ في سلعته ، ويحنث في إيمانه، وصحفي يتجر بعقول الاحرار ، كما يتجر النخاس بالعبيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء .

غرفة الاحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه ، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه ، فكان يروقني منظره ويؤنسني محضره ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، او فسقه واستهتاره ، لانني ما فكرت قط ان أتلقى عنه علوم الشريعة او دروس الاخلاق .

قضيت في صحبته عهداً طويلا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً حتى سافرت من القاهرة سفراً طويلا فتراسلنا حيناً ، ثم انقطعت عني كتبه فرابني من أمره ما رابني ، ثم رجعت فجعلت أكبر همي ان أراه فطلبته في جميع المواطن التي كنت ألقاه فيها فلم أجده ، فذهبت الى منزله ، فحدّثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد ، وأنهم لا يعرفون أين مصيره ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، يغالب أولهما ثانيهما حتى غلبه ، فايقنت أني قد فقدت الرجل ، وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلا .

هنالك ذرفت من الوجد دموعاً لا يذرفها الا من قل نصيبه من الاصدقاء ، وأقفر ربعه من الاوفياء ، وأصبح غرضاً من اغراض الايام ، لا تخطئه سهاما ولا تغبه آلامها [1] .

بينا أنا عائد الى منزلي في ليلة من ليالي السرار [2] إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدلهم الى زقاق موحش مهجور يخيل للناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مررت فيها أنه مسكن الجان ، او ماوى الغيلان، فشعرت كأني أخوض بحراً أسود ، يزخر بين جبلين شامخين ، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر وترتفع وتنخفض ، فما توسطت لجته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنة تتردد في جوف الليل ، ثم تلتها أختها ثم أخواتها ، فاثر في نفسي مسمعها تاثيراً شديداً وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين .. وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى اقف أمامه وقفة المساعد ان استطعت ، او الباكي ان عجزت ، فتلمست الطريق الى ذلك المنزل حتى بلغتـه ، فطرقت الباب طرقاً خفيفاً فلم يفتـح ، فطرقته أخرى طرقاً شديداً ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها ، فتأملتها على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فاذا هي في ثيابها الممزقة ، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها : هل عندكم مريض ؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها ، وقالت : أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت ، ثم مشت أمامي فتبعتها حتى

---

(١) أغبه الألم : جاءه حيناً بعد حين . (٢) ليالي السرار : الليالي الأخيرة من الشهر .

وصلت الى غرفـة ذات باب قصير مسنم ، فدخلتها ، فخيل الي أني قـد انتقلت من عالم الاحياء الى عالم الاموات ، وان الغرفة قبر ، والمريض ميت ، فدنوت منه حتى صرت بجانبه ، فاذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي . فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه واطال النظر في وجهي ، ثم فتح شفتيه قليلا قليلا قليلا ، وقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت صديقي » فشعرت كان قلبي يتمشى في صدري جزعاً وهلعاً ، وعلمت أني قد عثرت بضالتي التي كنت أنشدها ، وكنت أتمنى ألا أعثر بها ، وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، وألا يجدد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً ، وبين اضالعي دفيناً ، فسألته ما باله ؟ وما هذه الحال الـتي صار إليها ؟ وكأن أنسه بي أمـد مصباح حياته الضئيل بقليل من النور ، فاشار الي أنه يحب النهوض ، فمددت يدي إليه ، فاعتمد عليها حتى استوى جالساً وأنشأ يقص علي القصة الآتية :

منذ عشر سنين كنت اسكن أنا ووالدتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا من ارباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمت القصور اجنحتها على مثلها حسناً وبهاء ، ورونقاً وجمالاً ، فالم بنفسي من الوجد بهـا ما لم استطع معـه صبراً ، فمـا زلت بهـا أعالجها فتمتنع ، واستنزلها فتعتذر ، وأتاتى الى قلبها بكل الوسائل فلا اصل اليه ، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه اليها ، فسكن جماحها ، وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد ، ومـا هي الا أيام قلائل

حتى عرفت ان جنيناً يضطرب في احشائها ، فأسقط في يدي ، وطفقت أرتئي بين ان أفي لها بوعدها او اقطع حبل ودها ، فآثرت أخراهما على أولاهما ، وهجرت ذلك المنزل الذي كنت تزورني فيه ، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً .

مرت على تلك الحادثة أعوام طوال ، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب ، ومد يده تحت وسادته واخرج كتاباً بالياً مصفراً ، فقرأت فيه ما يأتي :

« لو كان بي ان اكتب إليك لأجدد عهداً دارساً ، او وداً قديماً ، ما كتبت سطراً ، ولا خططت حرفاً ، لأني اعتقد ان عهداً مثل عهدك الغادر ، ووداً مثل ودك الكاذب ، يستحق ان احفل به فاذكره ، او آسف عليه فاطلب تجديده .

انك عرفت حين تركتني ان بين جنبي ناراً تضطرم ، وجنيناً يضطرب ، تلك للأسف على الماضي ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم تبال بذلك وفررت مني حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر الى شقاء انت صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع انت مرسلها ، فهل استطيع بعد ذلك ان اتصور أنك رجل شريف ؟ لا ... بل لا استطيع ان اتصور انك إنسان، لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في نفوس العجماوات وأوابد الوحش الا جمعتها في نفسك ، وكل ما في الامر أنك رأيتني السبيل الى إرضائها فررت بي في طريقك إليها ، ولولا ذلك ما طرقت لي باباً ، ولا رأيت لي وجهاً .

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فاخلفت وعدك ذهاباً بنفسك ان تتزوج امرأة بجرمة ساقطة ، وما هذه الجريمة ولا تلك السقطة الا صنعة يدك وجريرة نفسك ، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة ، فقد دافعتك جهدي حتى عييت بأمرك ، فسقطت بين يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدي الجبار الكبير .

سرقت عفتي ، فاصبحت ذليلة النفس حزينة القلب ، استثقل الحياة واستبطىء الاجل ، وأي لذة في العيش لامرأة لا تستطيع ان تكون زوجة لرجل ولا أماً لولد ، بل لا تستطيع ان تعيش في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية الا وهي خافضة رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدها على كفها ، ترتعد اوصالها وتذوبُ احشاؤها ، خوفاً من عبث العابثين وتهكم المتهكمين.

سلبتني راحتي لأني اصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة الى الفرار من ذلك القصر الذي كنت متمتعة فيه بعشرة ابي وامي ، تاركة ورائي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد الى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه احد ، ولا يطرق بابه ، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من ايام حياتي .

قتلت امي وابي ، فقد علمت انهما ماتا ، وما احسب موتهما الا حزناً لفقدي ، ويأساً من لقائي .

قتلتني لأن ذلك العيش المر الذي شربته من كاسك ، والهم الطويل

الذي عالجته بسببك . قد بلغا مبلغها من جسمي ونفسي ، فاصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفساً في نفس ، واحسب ان الله قد صنع لي ، واستجاب دعائي ، واراد ان ينقلني من دار الموت والشقاء ، الى دار الحياة والهناء .

فانت كاذب خادع ، ولص قاتل ، ولا احسب ان الله تاركك دون ان ياخذ لي بحقي منك .

ما كتبت اليك هذا الكتاب لأجدد بك عهداً ، او اخطب إليك وداً، فانت اهون علي من ذلك ، إنني قد اصبحت على باب القبر وفي موقف وداع الحياة بأجمعها خيرها وشرها ، سعادتها وشقائها ، فلا امل لي في ود، ولا متسع لعهد ، وإنما كتبت إليك لان لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فان كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الابوة ، فاقبل اليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما ادرك امها من قبلها » .

فما اتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تتحدر على خديه فسألته : وماذا تم بعد ذلك ؟ قال : إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في جميع اعضائي ، وخيل الي ان صدري يحاول ان ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً ، فأسرعت الى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها الى جانبها تبكي بكاءً مراً ، فصعقت لهول ما رأيت ، وتمثلت لي جرائمي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية ، واساود ملتفة ، هذا ينشب اظافره ، وذاك يحدد انيابه ، فما افقت حتى

عاهدت الله ألا ابرح هذه الغرفة التي سميتها « غرفة الاحزان » حتى اعيش فيها عيشها ، واموت موتها .

وها أنذا اموت اليوم راضياً مسروراً ، فقد حدثني قلبي ان الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء .

وما وصل من حديثه الى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول : ابنتي يا صديقي ، فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت الى اصدقائه ومعارفه فحضروا تشييع جنازته ، ومارئي مثل يومه يوم كان اكثر باكية وباكيا .

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أي ساعة مجزع

يعلم الله أني اكتب قصته ، ولا املك نفسي من البكاء والنشيج ، ولا أنسى ما حييت نداءه لي وهو يودع نسمات الحياة ، وقوله : « ابنتي يا صديقي » .

فيا اقوياء القلوب من الرجال ، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء . انكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن ، وعفتهن .. أي قلب تفجعون ، وأي دم تسفكون !!

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء .

ما من عامل يعمل في هذه الحياة الا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوره ، يقتل القاتل وفي اعتقاده ان الشرف في ان ينتقم لنفسه او عرضه باراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالي ان يسميه القانون بعد ذلك مجرماً ، لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية ؛ وهي في نظره اعدل من القانون حكماً ، واصدق قولا .

يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الاعفاء والمستقيمين ، وأنه استطاع ان يعمل عملا لا يقدم عليه الا كل ذي حذق وبراعة ، وشجاعة وإقدام .

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن ، وفي اعتقاد كل منهم ان الشرف كل الشرف في إحراز المال وان كان السبيل اليه دنيئاً وسافلا ، وان للذهب رنيناً تخفت بجانب صوته اصوات المعترضين والناقدين شيئاً

فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يسمع بجانبه صوت سواه .

هكذا يتصور الأدنياء انهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ، وما افسد عليهم تصورهم الا الذين احاطوا بهم من سجرائهم وخاطائهم وذوي جامعتهم ، اولئك الذين يحتقرون الموتور حتى يغسل الدم بالدم فيعظمونه ، وينعون على الرجل العف المستقيم بلاهته وخموله حتى يفجر ويستهتر فيطرونه ويجلونه ، ويكرمون صاحب الذهب ، ولو ان كل دينار من دنانيره محجم من الدم ، واولئك الذين يسمون الفقير سافلا ، وطيب القلب مغفلا ، وطاهر السرير بليداً ، والحليم عاجزاً .

لا تعجب ان سمعت ان جماعة الاغنياء الجهلاء تنعكس في ادمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها ، وتتراءى في لون غير لونها ، فان بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح افهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى ليكاد يفخر بالاولى ويستحي من الاخرى .

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بانه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة ، ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية او الاجتماعية ، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفاح بجانب اسماء العلماء والحكماء والاطباء خدمة الإنسانية وحملة عرشها واصحاب الأيادي البيضاء عليها في سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصور ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسي

القضاء يفتل شاربه ويصعر خديه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء الى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والذل ، ولا ذنب له عنده الا أنه جاع وضاقت به مذاهب العيش فسرق درهماً،وهو يسرق الدنانير في جميع أنائه واوقاته . ولولاه لما توهم اللص الكبير أنه اشرف من هذا اللص الصغير ، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معاً في موقف واحد امام قاض عادل يحكم بإدانة الاول لأنه سرق مختاراً ليرفه عيشه ، وبراءة الثاني ، لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء ان يهذب أخلاق الناس، ويقوم معوجها، فليهذب تصوراتهم وليقوم افهامهم ، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليس الرأي من ان يشير المعلم على المتعلم ان يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به اعماله او مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه والاضطراب في تصويره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقه بوزنه وتقديره .

ليس من الرأي ان يرشد المعلم المتعلم الى ان يطلب في حياته الشرف الاعتباري فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك .

ألا تراهم يعدون اشرف الشرف ان يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة او الذهب او يحلي بها صدره ، وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها بماله ، كما تبتاع المرأة من الجوهري حليتها ؟

لا شرف الا الشرف الحقيقي ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته

او مـاله او راحته في خدمـة المجتمـع البشري جميعه او خدمـة نوع من انواعه .

فالعالم شريف ، لأنـه يجلو صـدأ العقل الإنساني ويصقل مرآتـه والجاهد في سبيل الذود عن وطنـه شريف ، لأنـه يحمي مواطنيه غائـلة الاعداء ويقيهم عادية الفنـاء ، والمحسن الذي يضـع الإحسان في موضعـه شريف لأنه ياخذ بايدي الضعفاء ويحيي أنفس البائسين ، والحاكم العادل شريف ، لأنه رسول العناية الإلهية الى المظلومين يمنعهم ان يبغي عليهم الظالمون ، وصاحب الاخلاق الكريمة شريف لأنـه يؤثر بكرم أخلاقـه وجمال صفاته في عشرائه وخلطائه ، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة افضل درس في الاخلاق والآداب ، والصانـع والزارع والتـاجر اشراف مـتى كانوا أمناء مستقيمين ، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هـذا المجتمـع البشري ويحتملون في سبيـل ذلك مـا يحتملون من المؤونة والمشقة حـذراً عليه من التهافت والسقوط .

فان رأيت في نفسك أيها القارىء أنك واحد من هؤلاء ، فاعلم أنك شريف والا فاسلك طريقهم جهدك ، فان لم تبلغ غايته فاخذ القليل خير من ترك الكثير ، فان لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي .

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصها أحد الكتاب موضوعها ان كاتبها غاب عن بلده بضعة اعوام ، ثم عاد اليها بعد ذلك فزار صديقاً له من اسرياء الرجال ووجوههم ومن ذوي الاخلاق الكريمة والانفس العالية ، فوجده حزيناً كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل اليوم فاستفهم منه عن دخيلة أمره ، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يحبها ويجلها ويفديها بنفسه وماله فلم تحفظ صنيعه ولم ترع عهده ، وانها فرت منه الى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب ، فاجتهد الكاتب ان يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها ، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت اليه عن فعلتها بانها لا تحب زوجها لأنه في الاربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين ، وقالت : انها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية وان خالفت الشرائع الدينية ، لان الاولى عادلة ، والثانية ظالمة ، وقالت : ان ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع الا ان تاذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها

إلمام الازواج بنسائهم مـا دامت لا تحبـه ولا تالف عشرته ، وقالت : لو ادرك الناس اسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تعد المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها طاهرة ، اذا كانت تكره الاول .

هذا ملخص القصة على طولها ، واحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء او تاييـد مذهب من المذاهب ، لان الكاتب قد أعذر [1] تلك الفتاة فيما فعلت ، واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعداها على زوجها [2] وقضى لها فيما كان بينهما .

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية ، فالحق أقول : ان الكاتب أخطأ في وضعها ومـا كنت احسب الا ان مذهب الإباحية [3] قـد قضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة ، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين أبناء الامة العربية ، فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به .

قرأنا مـا كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة ، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها اليها دافع خداع او سائق حاجة ثم ثاب اليهـا رشدها وهداهـا ، فقلنـا : لا بـأس بتهوينهم ذنباً جسمته العادة ، وألبسته ثوباً اوسع من ثوبه،ولا باس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع الى ربها ، والتوبة من ذنبهـا ، ويـأبى المجتمع البشري الا ان يسد عليهـا

(١) أعذرها : قبل عذرها .
(٢) أعداها عليه : أنصف لها منه .
(٣) مذهب قديم كان يستحل أصحابه كل شيء رأياً واعتقاداً .

ابواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين . .

أما وقد وصل الحد الى تزيين الزنا للزانية وتهوين إثمه عليها وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج على طاعته كلما دعاها الى ذلك داع من الهوى ، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله ، ان فتاة الرواية لم تهف في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء لانها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقيــة في جسدها ، ولم يسقها الى ذلـك سائق شهوة بشرية ان صح ان تكون الشهوة البشرية عذراً يدفع مثلها الى مثل ما صنعت ، لانها فرت من فراش زوجها ، لا من وحشية خلوتها ولا سائق جوع ، لانها كانت أهنأ النساء عيشاً ، واروحهن بالاً ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في اعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة .

ان كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعاً في وضع كلمة الفساد في معاجمهم ، لانها لا مسمى لها في هذا العالم ، عالم العفة والطهارة والخير والصلاح ، ولا يمكن ان يكون المراد منها فتاة المواخير لانها لم تترك وراءها زوجاً معذباً منكوباً ، ولم ترض عن حياتها الجديدة التي انتقلت اليها قط ولا اغتبطت بعيشها فيها اغتباط تلك الفتاة .

كل الازواج ذلك الزوج الا قليلا ، فاذا جاز لكل زوجة ان تفر من

زوجها الى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر من معاشرة الاول وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم الف سلام .

أيها الكاتب ! ليس في استطاعتي ولا في استطاعتك ولا في استطاعة احد من الناس ان يقف دورة الفلك ويصد كر الغداة ومر العشى حتى لا يبلغ الاربعين من عمره مخافة ان تراه زوجته غير اهل لعشرتها اذا علمت ان في الناس من هو اصغر منه سناً وأكثر منه رونقاً وانضر شباباً .

إن الضجر والسامة من الشيء المتكرر المتردد طبيعة من طبائع النوع الإنساني فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه ، وعلم ان نظام الأسرة لا يتم إلا إذا بني على رجل وامرأة تدوم عشرتها ، ويطول ائتلافها ،فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطاً مقدساً حتى يحول بينها وبين رجوعها الى طبيعتها ، وذهابها في أمر الزوجية مذهبها في المطاعم والمشارب ، من حيث الميل لكل جديد ، والشغف بكل غريب .

هذا هو سر الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلا من الزواج ، فقد خالف ارادة الله وحاول ان يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيتية .

أي امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدثها نفسها في استبداله بأجمل

منه ؟ وأي رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى ان يكون في منزله اجمل منها ، لولا هذا الرباط المقدس : رباط الزوجية ، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس وهو الذي يعيد الى النفوس الثائرة سكونها وقرارها .

لا باس ان يتثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا باس ان تصنع المرأة صنيعه ، ولكن لا على معنى ان يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ويموت بموته . فالقلوب متقلبة ، والأهواء نزاعة ، بل بمعنى ان يكون كل منهما لصاحبه صديقاً أكثر منه عشيقاً ، فالصداقة ينمو بالمودة غرسها ، ويمتد ظلها ، أما الحب فظل ينتقل ، وحال تتحول .

الاسلام والمسيحية

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام ، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير دين الإسلام يضن به ضنه بنفسه وماله ان يؤمن بالوحدانية ، ويصدق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحج البيت ما استطاع اليه سبيلاً !

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسك بيسوعيته ان الإسلام دين موضوع ابتدعه عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدنية الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران .

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل ،فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من ان يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ وكيف يسمح لنفسه ان ينظر اليه بالعين التي ينظر بها المسلم اليه من

حيث كونه نبياً مرسلاً موحى اليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ أما ما نقرؤه احيانا لبعض علماء الغرب المسيحيين من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته ، فهو مكتوب باقلام قوم مؤرخين قد أدوا للتاريخ حق الامانة والصدق ، فلم يعبث التعصب الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية في اقلامهم ولا ريب في ان اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » خيل اليه انه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يدهش أو ينهب به العجب كل منهب اذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجيليين ، وجرائدهم ومجلاتهم ، من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه ؟

بلغ التعصب الديني بجماعة المبشرين ان حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنه كتاب عربي نظمه على حسب معتقدهم رجل هو في نظرهم أفصح العرب ، وليست مسالة الإعراب واللحن مسالةعقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وانما الاعراب ما نطق به العرب ،واللحن ما لم ينطقوا به ؛ فلو أنهم اصطلحوا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً لكان رفع الاول ونصب الثاني لحناً ، ولكن جهلة المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن لقواعد النحو التي ما دونها مدونوها الا بعد آن نظروا في كلام العرب وتتبعوا

تراكيبه وأساليبه ، واكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حجة على النحاة ، وليست النحاة حجة على القرآن ، فإذا وجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة حكمنا بانهم مقصرون في التتبع والاستقراء ، على انهم قصروا في شيء من ذلك ، وما تركوا كثيراً ولا قليلا ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم ، فلا القرآن يلحون ، ولا النحاة مقصرون ، ولكن المبشرين جاهلون ، فإذا كان التعصب الديني انطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة فليس بغريب ان نسمع هذا الرجل المتشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه .

إننا لا ننازع اللورد كرومر ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ولكننا نحب منهم ألا ينازعونا في معتقدنا ، وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول اللورد كرومر : إن الدين الاسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الاسلامية ، ولا يصلح للنظام الاجتماعي ، ويقول : إن ما لا يصلح له الدين الاسلامي يصلح له الدين المسيحي، ويستدل على الاسلام بالمسلمين، وعلى المسيحية بالمسيحيين .

في أي عصر من عصور التاريخ ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنية والعمران ؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدموية بين الارثوذكس والكاثوليكية تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة اسود لها لباس

الانسانية ، وبكت الارض منها والسماء ؟ أم في العصر الذي كانت ارادة المسيحي فيه صورة من ارادة الكاهن الجاهل ، فلا يعلم الا ما يعلمه اياه ، ولا يفهم الا ما يلقيه اليه، فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر او ايمان ، وبهيمية او انسانية ، فيكاد يتخيل ان له ذنباً متحركاً وخيشوماً طويلا ، وانه يمشي على اربع اذا قال له الكاهن : انت كلب: او قال له : انك لست بإنسان ؟ ام في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي ان دخول الجمل في سم الخياط اقرب من دخول الغني في ملكوت السموات ؟ ام في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الاعظم على المسيحي ان ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس . وان يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة ؟ ام في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فذعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا الى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجو فولت الادبار ؟! أما في العصر الذي اهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة الى الملك شارلمان ، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها فر من وجهها ظناً منه انها تشتمل على الجن والشياطين ؟! ام في العصر الذي ألفت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة واربعين ألفاً بالقتل حرقاً او صلباً ؟ ام في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسناء بعدما كشط لحمها وحرق عظمها لانها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة ؟

هذا الذي نعرفه ايها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم أكانت تلك المسيحية

التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك ام باطلة ، وانما نريد ان نستدل بالمسيحيين على المسيحية ، وان لم نقف على حقيقتها كما فعلت انت في استدلالك بالمسلمين على الاسلام وان لم تعرف حقيقته وجوهره ، على ان استدلالنا صحيح واستدلالك باطل ، فان المدنية الحديثة ما دخلت اوربا الا بعد ان زحزحت المسيحية منها لتحتل محلها كالماء الذي لا يدخل الكاس الا بعد ان يطرد منه الهواء لانه لا يتسع لهما ، فان كان قد بقي اثر من آثار المسيحية اليوم في اكواخ بعض العامة في اوربا فما بقي الا بعد ان عفت عنه المدنية ورضيت بالابقاء عليه ، لا باعتبار انه دين يجب أجلاله واعظامه ، بل باعتبار انه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها وبقوتها على كسر شرة النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها ، او باعتبار انه أثر من آثارها ،ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه خمسة عشر قرناً كانت فيها اوربا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفعتها مسيحيتها ولا اغنى عنها كهنوتها ».

اما المدنية الاسلامية فانها طلعت مع الاسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد ، ثم سارت الى جانبه كتفاً لكتف ما ينكر من امرها ولا تنكر من امره شيئاً ، فالمتعبد في مسجده ، والفقيه في درسه ، والمعرب في خزانة كتبه ، والرياضي في مدرسته ، والكيمائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلكي امام اسطرلابه ،

والكاتب بين محابره وأوراقه ، اخوة متصافون واصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغي احد منهم على احد .

ايها الفيلسوف التاريخي : ان كان لا بد من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم اثر من آثار الاسلام بالامس، والانحطاط الاسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الاولى . واليك البيان :

جاء الاسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج اليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته ، وما يفيده منفرداً ،وما ينفعه مجتمعاً .

هذب عقيدته بعد ما افسدها الشرك بالله والاسفاف الى عبادة التماثيل والاوثان ، واحناء الرؤوس بين ايدي رؤساء الاديان ، وارشده الى الايمان بألوهية اله واحد لا يشرك به شيئاً ، ثم ارشده الى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والارض ليقف على حقائق الكون وطبائعه، وليزداد ايماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره ، ليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً ، فلا يكون آلة صماء ، في يد الاهواء تفعل به ماتشاء، ثم ارشده الى مواقف تذكره بربه وتنبهه من غفلته وتطرد الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت اليها سبيلا ، وهي مواقف العبادات ثم اطلق له الحرية في القول والعمل ، ولم يمنعه من الشرك بالله والاضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعدما كان يجهلها ، وعلمه أن الانسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ووضيعها ورفيعها وضعيفها وقويها ، وأن الملك والسوقة ، والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي : امام الله والحق سواء ،

وأن الأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، والنفع والضر ، والثواب والعقاب ، والرحمة والغفران : بيد الله وحده لاينازعه منازع ، ولا يملكها عليه احد من الانبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ثم نظر في اخلاقه فارشده الى محاسنها ، ونفره من مساوئها حتى علمه آداب الأكل والشرب ،والنوم والمشي ، والجلوس والكلام ، والتحية والسلام ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبر الابن أباه ويرحم الوالد ولده . ويعطف الأخ على أخيه ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الاقرباء وذوي الرحم ، ثم نظر في شؤونه الاجتماعية ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت ووضعت في مواضعها المشروعة لما كان في الدنيا بائس ولا فقير وندبه إلى الصدقة ومساعدة الاقوياء للضعفاء ، وعطف الاغنياء على الفقراء . ثم شرع له الشرائع للمعاملة الدنيوية . ووضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والاجازة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه ، فلا يغبن أحداً أحداً،ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يبغي بعضه على بعض بشتم او سب او قتل او سرقة او انتهاك حرمة او مجاهرة بمعصية اوشروع في فتنة او خروج على امير اوسلطان ، ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافات وشروطها ، والقضاء وصفاته، والامارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين البعيدين عنهم والنازحين إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسالمة لهم .

وجملة القول : ان الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الانسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده الى لحده ، الا مد يده اليه وأنار له مواقع أقدامه ، وأرشده الى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نوراً واشراقاً ، واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ، ومنكر لوجودها ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضيائها على تفاوت في تلك الاستنارة وتنوع في ذلك الانتفاع .

لمعت هذه الشمس المشرقة فتمشت اشعتها البيضاء الى أوربا من طريق اسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا ، فابصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين ، فانتبهوا من رقدتهم واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الاسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ما لفت نظرهم الى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ ، فقالوا : أيمكن أن يعيش الانسان حراً على ظهر المسكونة لايستعبده ملك ولايسرقه كاهن؟ أيمكن انيبيت المرء ليلةواحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في مرقده ، لا يروعه دولاب العذاب ، ولا سيف الجلاد ؟ أيمكن ان تملك النفس حريتها في النظر الى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ؟ أيمكن ان يطلع فجر المدنية على هذا المجتمع الغربي فيمحو ظلمته التي طال عهدنا بها حتى غشيت ابصارنا فما يكاد يرى بعضنا بعضاً ؟

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول اولئك الأذكياء هي الخطوة الاولى التي مشتها اوربا في طريق المدنية والعمران بفضل الاسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الافراد من مخالطة المسلمين في اوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم اخذوا يعلمونها للناس سراً ويبثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ، ويلقون في سبيل نشرها عناء شديداً ، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عدة حتى انتهى امره بالثورة الفرنسية ، فكانت هي القضاء الاخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي : انك لا بد تعلم ذلك حق العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ ان يعلمه ، كما تعلم ان المدنية الاسلامية اذا وسعت غيرها فاحر بها ان تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه، فما كفاك ان انكرت فضل صاحب الفضل عليك ، حتى انكرت عليه فضله في نفسه !

لا حاجة بي ان اشرح لك المدنية الاسلامية او اسرد لك اسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والاخلاق والعمران ، أو أعدد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، او اصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناءتها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول .

غير اني لا انكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الاخيرة من الضعف

والفتور ، وما اصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب ذلك الاسلام كما نتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها اليهم على ايدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الاسلام وتزيوا بزيه ودخلوا بلاده وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء ، وامرائه الجهلاء ، فامدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى افسدوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، راوقعوا الفتنة فيهم ، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الاسلام وقوته فكان من امرهم بعد ذلك ما كان .

كل ما نراه اليوم بين المسلمين : من الخلط في عقيدة القضاء والقدر ، وعقيدة التوكل ، وتشييد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامي على اعتابها ، والاهتمام بصور العبادات واشكالها دون حكمها واسرارها ، واسناد النفع والضرر الى رؤساء الدين ، وأمثال ذلك أثر من آثار المسيحية الأولى ، وليس من الإسلام في شيء .

أيها الفيلسوف التاريخي : لا تقل اننا متعصبون تعصباً دينياً فانك قد اسأت الينا والى ديننا ، فلم نر بداً من الذب عنا وعنه بما تعلم أنه حق وصواب ، على أنه لا عار علينا فيما تقول ، وهل التعصب الديني الا اتحاد المسلمين يداً واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شان دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله .

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافض

أهناء أم عزاء

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعدما عمروا هذه البلاد بفضائلهم وما ثرهم وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدنية الغربية والمدنية الشرقية .. يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعد ما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد ويجتهد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلد في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون الينا فنسيء اليهم ، ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسب انهم قوم من شذاذ الآفاق او نفايات الأمم جاءوا الينا يصادروننا في ارزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو انصفناهم لعرفناهم وعرفنا ان اكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وانما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع احرار النفوس وأباة الضيم،

فاحرجت صدورهم ، وضيقت عليهم مذاهبهم ففروا من الظلم تار وراءهم شرفاً ينعاهم ، ومجداً يبكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، واساتذة كباراً ، فما احسنا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم .

وبعد : فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت افئدتنا مخافة ان يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم انشكر للدستور ان فرج عنهم كربتهم ، وامنهم على أنفسهم، وردهم الى اوطانهم أم ننقم منه أنه كان سبباً في حرماننا منهم ، بعد أنسنا بهم ، واغتباطنا بحسن عشرتهم وجميل مودتهم ، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟ .

فيا أيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم   رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا اذا غنى بكم   شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان

حدثني احد الاصدقاء قال : ساقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصين .

أويت الى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غدافية الإهاب فما استقبلت اول طليعة من طلائع النوم حتى قرع باب غرفتي فتسمعت فاذا الخادم تقول : ان امرأة سيئة الحال رثة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلتك وتقول : ان لها عندك شأناً ، فقلت في نفسي : لا شان لي مع امرأة ربما كانت ذات حاجة وكانت حاجتها الي اكثر من حاجتي الى النوم ، على ان النوم لا يفوتني ، فليل الشتاء اطول من يوم القضاء ، فارتديت ردائي ونزلت ، فاذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق ينم بجمالها كما ينم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفيء هذه الجذوة التي تتأجج بين اضالعي بقطرة

واحدة من الرحمة ؟ فقلت : من انت يرحمك الله ؟ قالت : انا فلانة زوج فلان ، فدهشت وغصصت بريقي حتى ما اجد بلة احرك بها لساني لهول ما سمعت وسوء ما رأيت ، وقلت : يا للعجب ! زوج فلان على عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزة ! وسألتها : ما شانك يا سيدتي ومم تبكين ؟ قالت : لا تحدث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها ، فوالله ما جئت اليك تحت ستر الليل الا وانت اوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ،ولولا شدة اقلقت مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت اليك سواد الليل في مثل هذه الساعة ولا احتملت في سبيل ذلك ما احتملت ، قلت : عهدي بسيدتي رخية البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الاخلاق كريم السجايا يؤثر هوى نفسه على هواك ، ولا يعدل بك أحداً ، قالت : انك تقص علي حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاستمع مني حديث اليوم :

اظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنه كان منذ ثلاثة اعوام ، وان أبي قد آثره وفضله على جميع الخاطبين اليه من علية القوم وجلتهم ، وانا لا ألومه على ذلك رحمة الله عليه فما أراد بي شراً ولا اعتمد ان يسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلا طيب السريرة طاهر القلب ، فخدعه الخادعون عني ، ومن ذا الذي لا يخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية ، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتطبت به واغتبط بي برهة من الزمان حسبتها دائمة لا انقطاع لها

حتى يفرق بيننا الموت ، وكنت امرأة اجمع في نفسي جميع ما يمت به النساء الى الرجال ، فما خنته ولا ضقت ذرعاً به ، ولا قطبت في وجهه مرة ولا اتلفت له مالاً ، ولا نقضت له عهداً ، فجازاني بالإحسان سوءاً ، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان ، وخان ودي ، ونقض عهدي ، لا لذنب جنيته ، او وصمة يصمني بها ، ولكنه رجل ملول متبرم ، ولا تغضب يا سيدي ان قلت لك : ان قلب الرجل متقلب متلون يسرع الى البغض كما يسرع الى الحب ، وان هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها اوثق منه عقداً ، وامتن وداً ، وأوفى عهداً ، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع ان يفرق بين قلبيهما الا ريب المنون . قلت : انا لا اغضب لشيء الا للإنسانية ان يخفر ذمامها ، وينقض عهدها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ قالت : مات أبي كما تعلم وخلف لي مالاً امكنت منه زوجي فاتلفه بين الخمر والقمر ، فكنت أغضي على ذلك رحمة به وشفقة عليه استبقاء لوده ، حتى اذا صفرت يدي واقفر ربعي احسست منه مللاً كان يدعوه الى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً ما يتهكم بي ويقول : انني لا احب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا افهمها ، وآونة كان يعرض بي قائلا :ان الرجل السعيد هو الذي يرزق زوجة متعلمة ، تقرأ له الجرائد والمجلات وتتبسط معه في الشؤون الاجتماعية والسياسية ، بل يتجاوز التعريض احياناً الى التصريح ، فيقول كلما دخل علي متأففاً متنمراً : ليت لي زوجة كفلانة فانها تحسن الرقص والغناء والتوقع على الآلات الموسيقية ، فكنت أشك

في سلامة عقله ، واقول في نفسي : كيف يفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحيية المحتشمة ، ووالله ما تمنيت مرة ان اكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت ابذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعد ، فما زال الملل يدب في نفسه دبيب الصهباء في الاعضاء حتى تحول الى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظني الا شزراً ولا يدخل المنزل الا لتناول غرض او قضاء حاجة ، ثم يخرج لشانه فكنت أحتمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور ، حتى عرض له بعد ذلك ان نقل الى منصب أرقى من منصبه في بعض بلاد الاقاليم ، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلتي ، فلبثت اترقب كتاباً منه يدعوني فيه الى اللحاق به ، فما أرسل كتاباً ولا رسولاً ولا نفقة ، فاستكتبت اليه الكتاب فما اسلس قياده ، ولا طاوع عناده ، فسافرت اليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه معي ، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره ، وأعلمني أنه تزوج من فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية ، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على القطع الموسيقية ، فداخلني من الهم ما الله به عليم ، وجزعت ولكن أي ساعة مجزع ، ولا أظن الا ان العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقتها في هذا السبيل حساباً غير يسير .

وكانه شعر بمكاني ، فجاء الي يتهددني ويتوعدني فتوسلت اليه

بـكاء طفلته التي كنت احملها على يدي ، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقـدنا عليهـا ، وذهبت في استعطافه واستدنائه كل مذهب ، فكنت كانـني اخاطب ركوداً صمـاء [1] او استـنزل أبوداً عصماء [2] ثم طردني وأمر من حملني الى المحطة ، فعدت من حيث اتيت .

فمـا وصلت الى المـنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هـذه الثيـاب وجئتك متنكرة في ذمام الليل ، لأني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم ، ولأني أعلم كرمك وهمتك ومـا بينك وبـين ذلك الرجل من الود والاتصال عسى ان ترى لي رأياً في التفريق بيني وبينه ، علني أجـد في فضاء الحرية منفذاً كسم الخياط أرتشف منه ما أتبلغ بـه وأنا وطفلتي حتى يبلغ الكتاب أجله .

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما احزنني ، ووعدتها بالنظر في أمرها بعد ان هونت عليها بعض احزانها ولواعجها ، فعادت الى منزلها وعدت الى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة ، وقد اكتنفني همان : هم تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلبـاً أشقى من قلبهـا ولا نجماً انحس من نجمها ، وهم ذلك الصديق الذي ربحته سنين عدة وخسرته في ساعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسي عليها فاصبحت أعزيها عنه ، وكنت أحسبـه إنساناً فـاذا هو ذئب عملس [3] تستره الصورة البشريـة

---

(١) الركود ـ من الركود ـ وهو الثبات والسكون . والصخرة الصماء : الصلبة المصمتة .
(٢) أبدت البهيمة : توحشت . والعصماء من الظباء : التي في ذراعيها بياض وسائرها أسود .
(٣) العملس : السريع .

وتواريه البشاشة والابتسامة .

هذا ما قصه علي ذلك الصديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تم من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ، ولا ما تم من أمرها مع زوجها حتى جاءني منه امس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه :

سيدي :

يهمني كثيراً ان أرى بين كتب التهنئة التي ترد الي كتاباً منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي .

انك لا بد تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة البائسة التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها الى أخرى غيرها بعدما جردها مما كانت تملك يدها وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها الي ، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فأعلم انها دفعت زوجها الى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعا فطلقها ، وكنت افكر في ذلك التاريخ كما تعلم في الزواج من زوج صالحة اجد السعادة في العيش بجانبها ، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفسا ولا اكرم عنصراً ولا أذكى قلباً منها ، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذبة من شقوتها وبلائها ، وابشرك ان الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً ، فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر ،

والشقاء الاكبر ، وانها امرأة قد اخذت التربية الحديثة من نفسها ماخذاً عظيا فحولتها الى فتاة غربية في جميع شؤونها واطوارها ، والرجل المصري شرقي بفطرته كائناً من كان ، أما غربيته فهي متكلفة معتملة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه ، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء ، اضعاف ما كانت تقاسيه منه اشرف النساء ، والسلام ؟

في سبيل الاحسان

الإحسان شيء جميل ، وأجمل منه ان يحل محله ، ويصيب موضعه .

الاحسان في مصر كثير ، ووصوله الى مستحقه وصاحب الحاجة اليه قليل ؛ فلو أضاف المحسن الى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس ، وأنة محزون .

ليس الاحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ، فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياء ، وقد يكون احبولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس الاعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبذل قليلا ويربح كثيراً .

إنما الاحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتالم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء : فلو ان جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً ـ صادر عن تلك العاطفة الشريفة ـ لما تجاوز محله ، ولا فارق موضعه .

فوضى الاحسان :

الاحسان في مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ، ويحرم منه مستحقه ، فلا بؤساً يرفع ، ولا فقراً يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه ابو العلاء :

ولو ان السحاب همي بعقل   لما أروي مع النخل القتادا [1]

الاحسان في مصر ان يدخل صاحب المال ضريحاً من اضرحة المقبورين فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة او الذهب ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالاً ، او يهدى ما يسميه نذراً من نعم وشاء الى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل لحمه والسوس الذي ينخر عظمه ، وما أهدى شاته ولا بقرته ـ لو يعلم ـ الا الى « وزارة الأوقاف » وكان خيراً له ان يهديها الى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاوياً يتشهى ظلفاً [2] يمسك رمقه ، او عرقوباً يطفىء لوعته .

واعظم ما يتقرب به محسن الى الله ، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتيها : ان ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات ، ينشدون مواطن الصلات ، لا اماكن الصلوات ، او يبني بنية ضخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب

---

(١) القتاد : شجر صلب له شوك لا فائدة منه .

(٢) ظلف البقرة : ظفرها

والأركان ، مذهبة السقوف والجدران يسميها « سبيلا » ولا يهولنك هذا الاسم الضخم ، فكل ما في الأمر ان السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر الا بضع خطوات ، على ان الماء كالهواء ملء الارض والسماء ، ويقف الضياع الواسعة من الارض لتنفق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه احسن اليهم ،ولو عرف موضع الاحسان لأحسن اليهم بقطع ذلك الاحسان عنهم عليهم يتعلمون صناعة او مهنة يرتزقون منها رزقا شريفاً ، فان كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه الى الله تعالى اجل من ان يعبأ بعبادة قوم يتخذون عبادته سلماً الى طعام يطعمونه ، او درهم يتناولونه ، او يفتح ابواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو انصفوهم لسموهم قطاع الطرق ،ولا فرق بين الفريقين : الا ان هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصى ، واولئك يتسلحون بالسبح والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع ، فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ولا خفاً ولا حافراً ، ولا شيئاً مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .. الا أتوا عليه .

اسوأ الاحسان :

لم أر مالا أضيع ولا عملاً اخيب ولا إحساناً أسوأ من الاحسان الى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الارض ويقلبونها ظهراً لبطن،ويجتمعون في مفارق الطرق ، وزوايا الدروب ، وعلى أبواب الاضرحة والمزارات

يصمون الاسماع باصواتهم المزعجة ، ويقذون النواظر بمناظرهم المستبشعة ، ويزاحمون بمناكبهم الفارس والراجل ، والجالس والقائم ، فلو ان نجماً هوى الى الارض لهووا على أثره ، او طائراً طار الى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه [1]

وان شئت ان تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك ، وهل ما تسديه اليه من المعروف تسديه الى صاحب حاجة ، فاعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ، ولا مسكن له يحتاج الى مؤن ومرافق ، ولا شهوة له في مطعم او مشرب او ملبس . حتى لو علم ان الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب ، لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه ، وهو لو شاء ان يتزوج او يتخذ له مأوى يأوي اليه لفعل ، ولو جد في حرفته متسعاً لذلك ، ولكنه الحرص قد افسد قلبه وامات نفسه ، فهو يتوسل بانواع الحيل وصنوف الكيد ، ليجمع مالاً لا فائدة من جمعه ، ولا نية له في اصلاح شأنه به اذا اجتمع عنده ما يقوم له بذلك، بل ليدفنه في باطن الارض حتى يدفن معه ، او لينظمه في سلك مرقعته حتى يرثه الغاسل من بعده ، ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشره السافل ، ان يحمل في المال ما لا يستطيع مجاهد ان يحمل في سبيل الله ، فيتعمد قطع يده او ساقه او إتلاف عينيه او إحداهما ، ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما يحسد صاحبه اذا رآه اكثر منه دمامة ، واعظم تشويهاً .

(١) القوادم : الريشات التي في مقدم الجناح ، والخوافي : التي اذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

كما يحكى ان شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر ، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين ، واقتل للنفوس ، واجلب للرحمة والشفقة ، فقال الأول للثاني : لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك افضل حبالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب . فقال له صاحبه : واين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً ؟

ان اكبر جريمة يجرمها الإنسان الى الإنسانية ان يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغرى كل من شعر في نفسه بالميل الى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم، والاحتراف بحرفتهم ، فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضواً كاملا ، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملا ، فكأنه هدم بعمله هذا جميع المساعي الشريفة التي بذلها الانبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الانساني ،وتهذيب اخلاقه، وتخليصه من آفات الجمود والخمول ؛ فهل رأيت معروفاً اقبح من هذا وإحساناً أسوأ من هذا الاحسان ؟ !

تنظيم الاحسان :

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الاحسان مما يستهان به ، فلو قال قائل : انها تبلغ فى مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب لما اخطأ التقدير .

سألت رجلاً من وجوه الريفيين المعروفين بالبر والاحسان عن كمية

ما ينفقه كل عام في هذا السبيل ، فاطلعني على جريدة حسابه فرأيتها هكذا :

جنيه	
١٠	ولائم لمشايخ الطرق .
٦٠	ليالي في موالد البيومي والعفيفي والدشطوطي .
٧٢	مرتبات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله .
٣٠	هبات لجماعة الطوافين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الداثر .
١٨	صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً .
١٠	توضع في صناديق الأضرحة .
٤٠	ثمن خبز ولحم وملابس توزع في المواسم الدينية .
٢٤٠	المجموع

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الاحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد ، وفي مصر مئات مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة في ان يقدر هذا النوع من الاحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسله وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو ان هذا المقدار حل من الاحسان محله ، واصاب منه موضعه ، وأنفق في سبل الخير النافعة ، ووجوه البر الحقيقية ، لأرتقى بالأمة المصرية الى ذروة الكمال ، ولكان له الأثر الجليل في وصولها الى ما تتطلع اليه من هناء العيش وسعادة الحياة .

لذلك أقترح في تنظيم الاحسان اقتراحاً نافعاً وأدعوا الكاتبين الذين لا مصلحة لهم في إثارة الخواطر وتهييج النفوس ، وضرب الناس بعضهم ببعض ، ان يساعدوني بأقلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد .

أقترح ان يقوم جماعة من سراة الأمة ووجوهها واصحاب الرأي فيها بتاليف مجتمع في القاهرة يسمى « مجتمع الاحسان » ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم فرع تابع له .

أما أعماله التي احب ان يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة :

ا ـ استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة بكل واسطة من وسائل النشر وبكل وسيلة من وسائل التاثير معنى الاحسان ، وما هو الغرض منه ، وما هي أفضل وجوهه ، وأي أنواعه اجمع لخيري الدنيا والآخرة .

ب ـ بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الاحسان هذا بيت مال لهم او وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها على مستحقيها وحسبها ان تاخذ من كل فرد في عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك ماخوذاً بشيء من الاحسان امام ربه ، وامام أمته اكثر مما قدمه لهذا المجتمع :

ج ـ إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر

وتنكر لهم بعد العزة والنعمة ، وصيانة ماء وجوههم ان تراق على تراب الاعتــاب ، والانفاق عـلى تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى ان تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء ، الى امثال هذه الاعمال الخيريـة الشريفة الـتي لا يتحقق الاحسان بدونها ، ولا ينصرف معنـاه الا اليها .

أنا اعتقد اعتقاداً لا ريب فيه ان من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل ، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الانسان ، هو افضل عامل في الوجود واشرف إنسان .

أدب المناظرة

أنا لا اقول الا مـا اعتقد ، ولا اعتقد الا مـا اسمع صداه من جوانب نفسي ، فربما خالفت الناس في اشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتي اليهم في ذلك ان الحق أولى بالمجاملة منهم ، وان في رأسي عقلاً اجـله عن ان انزل به الى ان يكون سيقة [1] للعقول ، وريشة في مهاب الاغراض والأهواء .

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس ان يرميني بجارحة من القول او صاعقة من الغضب لأني خالفت رأيه او ذهبت غير مذهبه ، او ان يرى ان له من الحق في حملي على مذهبه ، اكثر مما يكون لي من الحـق في حمله على مذهبي .

لا باس ان يؤيد الانسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا باس ان ينقض أدلة خصمه ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه في ان

(١) السيقة : ما يساق سوقاً ؛ ومنه « إنما ابن آدم سيقة يسوقه الله » .

يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل الى نشر الحقيقة التي يعتقدها الا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا اعتقد انها تنفعه او تغني عنه شيئاً ، وهي وسيلة الشتم والسباب .

ان لاخلاص المتكلم تاثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحل الاعظم في القلوب والأفهام ، والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيما يقول ، فعبثاً يحاول ان يحمل الناس على رأيه ، او يقنعهم بصدقه ، وان كان اصدق الصادقين .

أتدري لم يسب الانسان مناظره ؟ لأنه جاهل وعاجز معاً ، أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة الى البحث في شؤون المناظر وأطواره وصفاته وطبائعه ، كأن كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجي » ، وما أعجزه فلأنه لو عرف الى مناظره سبيلا غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، محقاً كان أم مبطلا .

لا يجوز بحال من الأحوال ان يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتاييدها ، واحسب ان لو سلك الكتاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيها الا لأنهم فيما بينهم مختلفون . يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من اجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وان كان هو

قوياً في ذاته ، لأن القلم لا يقوى إلا اذا استمد قوتـه من القلب ، فـاذا جيء بالحجج والبراهين لجأ الى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلا : إنك جاهل لا يعتد برأيك او إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك ، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس ، وهنالك يقول له الناس : رويداً ، لا تخلط في كلامـك ، ولا تراوغ في مناظرتك ، ولا شأن لـك بعـلم صاحبك او جهله ، فانه يقول شيئاً ، فان كان صحيحاً فسلم به ، او باطلا فبين لنـا وجه بطلانه ، وهبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شان لك باضطراب صاحبه وثباته ، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطىء مرة ويصيب ، فاذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فر الى اضعف الوسائل وأوهنهـا ، فسب مناظره وشتمه وذهب في التمثيـل بـه كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة والخذلان في ذلك الميدان .

على ان اكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فان لكل شيء جهتين : جهة مدح ، وجهة ذم ، فإما ان تتساويا ، او تكبر إحداهما الأخرى ، فإن كان الاول فلا معنى للاختلاف ، وان كان الثاني وجب على المختلفين ان يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا ان يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الاخير .

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد الـنزاع بينهما وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيـه ، فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحـدى الليالي وهما يتناظران في المرأة ، يعلو بها الملك الى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير الى منزلة

الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته ، فلما علا صوتهما واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد وبين أثوابه لوح على احد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما : أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها ، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع الى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذماً قبيحاً ، فهاج غيظ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو . فلما عادا الى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما وضحكا ضحكاً كثيراً ، ثم قال لهما : هذا ما انتما فيه منذ الليلة ، وما أحضرت اليكما هذا اللوح إلا لأضرب به لكما مثلاً لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو انكما تنظران الى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها ، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً .

الاحسان في الزواج

ورد الي في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

حضرة السيد الفاضل :

ضمني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فاخذته الرأفة بها فتزوجها ، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له ، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ، ولم يستطع احد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه ، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب اليك بذلك علك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة ، والسلام .

ف.س

أيها السائل الكريم :

إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلا الى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها

إلا هذا السبيل ، كما هو شأن الذين يتزوجون من البغايا ، فقد أخطأ خطأ جماً ، لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه الا أمر نفسه ،ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته ،ويتعلق بلذته ، وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاحها ، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبيها ملكة الفساد الراسخة في نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المهذب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشمئز لها ، بل لا يكفيها مؤونة العيش،ولا يرفهها ولا يقلبها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الشغف بها ، فإذا أقفر قلبه من حبها وعلم ان فراقها لا يهيج له وجداً ، ورجوعها الى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك المسكينة الى عشها الذي طارت منه وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والموجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به .

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاء لشهوته وإيثاراً للذته ، لا ينفعها ولا يحسن اليها ، لأنه لا يهذب نفسها ، ولا يفي لها بما عاهدها عليه من البقاء معها ، والاستمرار على عشرتها ، بل يسيء اليها بسوء تصرفه معها فيبغض اليها الصلاح ويحبب اليها الفساد ، وعندي انه في عمله هذا فاسق لا متزوج ، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي مهراً ولا عقد عقداً .

فإن كان حقاً ما تقول من ان باعثه الى ذلك الرحمة والرأفة والحنان

والشفقة فقد أحسن كل الإحسان ، ولا أحسب ان بين أعماله الصالحة عملا هو افضل عند الله ذخراً واعظم أجراً ، من هذا العمل الصالح .

العرض أثمن من الحياة ، فان كان من يمنح الحياة فاقدها شريفاً ، فاشرف منه من يرد العرض الضال الى صاحبه المفجوع فيه .

ليت الرجال يتفقون جميعاً على ان يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها الى البغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل ان تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن .

لم لا يكون باباً من ابواب الاحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجوهن من اولادهم واقربائهم، وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات النسب ، لأنه إحسان ، والاحسان لا يجمل الا اذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

لو عرف المحسنون معنى الاحسان لعرفوا أن إنفاق الاموال على بناء التكايا والزوايا ، وتوزيعه على المتسولين والمتكففين ، ووقفه على القارئين والذاكرين ، لا يدخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الاحسان الى النساء بالعصمة من البغاء .

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل ، فجدير به ان يغرم ما أتلف ، ويصلح ما أفسد .

يهاجم الرجل المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله ان يعده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى اذا خدعها عن نفسها ،

وغلبها على امرها وسلبها أثمن ما تملك يدها ، نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده .

هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين ، مسبلة دمعها على خدها ملقية رأسها على كفها ، تفلي أناملها التراب ، لا تدري اين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش !

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ، لأن الرجل يسميها ساقطة ، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ، لأن الرجل اهمل شانها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ، لأن الرجل يؤثر ان يمنحها القنطار حراماً ، على ان يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بداً من ان تطلبه من طريق البغاء .

فها انت ذا ترى ان شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ، وان الرجل هو الذي يمثل جميع ادوارها ، ويظهر في كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فإننا لا نزال نعتقد ان الرجل غريم المرأة ، وان حقاً عليه ان يؤدي دينه ، ويغرم أرش [1] جنايته .

ان ابى الرجل ان يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له الى ذلك الا اذا اعتبر الزواج باباً من ابواب الإحسان ، أي أنه

(١) الأرش : دية الجراحات .

يتروجها لها اكثر مما يتروجها لنفسه ، واحق النساء بالإحسان اولئك اللواتي سلبهن الله نعمة الجمال والمال ، وحلية الحسب والنسب ، فان أبى الا ان يتروج من المرأة السعيدة ، فليذكر أنه هو الذي اخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه الى مواطن الشقاء ، ورماها بيده في هوة الفسق والبغاء .

لا همجية في الاسلام [1]

أيها المسلمون : ان كنتم تعتقدون ان الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين لا ليموتوا ذبحاً بالسيوف وقطعاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ، فقد اسأتم بربكم ظناً ، وانكرتم عليه حكمته في افعاله وتدبيره في شؤونه واعماله ، وانزلتموه منزلة العابث اللاعب الذي يبني البناء ليهدمه ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدده .

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه . ويمده برحمته وإحسانه ، ويرسل اليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها : نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فجنيناً ، فبشراً سوياً .

ان إلهاً هذا شأنه مع عبده ، وهذه رحمته به وإحسانه اليه ، محال عليه ان يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها ، او يرضى بسفك دمه الذي

(١) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩ .

أمده به ليجري في شرايينه وعروقه لا ليسيل بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال .

في أي كتاب من كتب الله ، وفي أي سنة من سنن أنبيائه ورسله ، قرأتم جواز ان يعمد الرجل الى الرجل الآمن في سربه ، والقابع في كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه اهله وقومه ، لأنه لا يدين بدينه ، ولا يذهب مذهبه في عقائده .

لو جاز لكل إنسان ان يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها واصبح ظهر الارض أعرى من سراة أديم .

ان وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والاديان والطبائع والغرائز سنة من سنن الكون ، لا يمكن تحويلها وتبديلها ، حتى لو لم يبق على ظهر الارض الا رجل واحد ، لجرّد من نفسه رجلا آخر يخاصمه وينازعه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

ان الحياة في هذا العالم كالحرارة لا تنتج الا من التحاك بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة القضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه .

أيها المسلمون : ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مراداً به التشفي والانتقام منهم ، او القضاء عليهم ، وإنما كان لحماية الدعوة الإسلامية ان يعترضها في طريقها معترض او يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الارض ومغاربها حائل ، أي ان القتال كان ذوداً ودفاعاً ، لا تشفياً وانتقاماً .

وآيـة ذلك ان السرية من الجيش مـا كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب فيـه حتى يصل اليهـا أمر الخليفة القائم ان لا تزعج الرهبـان في أديرتهم ، والقساوسة في صوامعهم ، وان لا تحـارب الا من يقاومها ولا تقاتل الا من يقف في سبيلها ، ولقد كان أحرى ان تسفك دمـاء رؤساء الدين المسيحي وتسلب ارواحهم لو ان غرض المسلـين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم ، والقضاء عليهم .

لو انكم قضيتم على كل من يتدين بدين غير دينكم حتى اصبحت رقعة الارض خالصة لكم ، لانقسمتم على انفسكم مذاهب وشيعاً ، ولتقاتلتم على مذهبكم تقاتل ارباب الأديان على أديانهم ،حتى لا يبقى على وجه الارض مذهب ولا متمذهب .

أيها المسلمون : مـا جاء الإسلام الا ليقضي عـلى مثـل هـذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام .

ما جـاء الإسلام الا ليستل من القلوب أضغانها واحقادها ، ثم يملأهـا بعـد ذلك حكمة ورحمة ، فيعيش الناس في سعادة وهنـاء ، ومـا هـذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل الا بمثابة العمل الجراحي الذي يتذرع به الطبيب الى شفاء المريض .

عذرتكم لو ان هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتـكم ، أو ناهبـين في معاشرتـكم والكون معـكم مذاهب سوء تخافون مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالكم والكون تحت اجنحتكم أضعف من ان يمدوا اليكم يد سوء ، أو يبتدرونكم ببـادرة شر ، فلا عذر لكم .

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الاطفال الذين لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل ان يبلغوا سن الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في الحياة أخذاً ولا رداً ، والشيوخ الهالكين الزاحفين وخدهم الى القبور قبل ان تزحفوا اليهم ، وتتعجلوا قضاء الله فيهم .

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فانتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون .

من أي صخرة من الصخور ، أو هضبة من الهضبات ، نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم ، والتي لا تروعها أنات الثكالى ، ولا تحركها رنات الأيامى ؟

من أي نوع من أنواع الاحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون ان تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه وتتمشى في أحشائه على مرأى ومسمع من أمه ، وأمه عاجزة عن معونته ، لأن النار لم تترك لها يداً تحركها ، ولا قدماً تمشي عليها ؟

لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار ، لأني اعتقد ان قتل الضعفاء جبن ومعجزة ، وان سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية أحرى ان يعزى فيها صاحبها ، لا ان يهنأ بها .

أيها المسلمون : اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراستكم ووحشيتكم ، ولكن حذار ان تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية فالله سبحانه وتعالى أجل من ان يامر بقتل الابرياء ، أو يرضى باستعطاف الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وارحم الراحمين .

البخيل

سالني سائل : ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه ؟ وأي غرض يرمي اليه من ذلك ؟ فاجبته بهذا الجواب :

البخل إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يسال المسرف عن سبب إسرافه ، والغاضب عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لا يسال البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه ، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم الى الرغبة عن التخلي عنها حيناً ، فلا يجدون الى ذلك سبيلاً ، لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الارادات، وربما عرض للبخيل ما يدفعه الى بذل شيء من ماله ، فاذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه ، احس كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه الى يده فتشنجت اعصابها وتصلبت أناملها واعيت على

الالتواء والانثناء ، فاخرجها صفراً كما ادخلها ، وبوده ان لا يفعل لولا ان للغريزة قوة فوق قوة الإرادة ، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنقاد اليه العقول ، الا اذا كان وراءها وازع من القانون يزعها ، فانه يكسر شرتها احياناً ، وان لم ينترعها انتزاعاً .

ويحكى ان شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية ، فأراد نفسه على ان يبذل لها شيئاً من ماله فتابت عليه ، فاذن لوكيله ان يختلس لها من ماله ما يسد خلتها من حيث لا يعلمه بذلك ولا يدعه ينتبه لشيء منه ، علماً بانه لا يستطيع ان يكون كما يريد .

فالوجه في السؤال ان يقال : ما هي الاسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل ؟ فيكون الجواب عن ذلك : ان الاسباب تختلف باختلاف الاشخاص واطوارهم واخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الاسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع .

الأول ــ الوراثة : وهي وان كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة احياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين باضدادها والتأثر بمخالطتهم ، الا انها كثيراً ما تنمو وتتجسم اذا اغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها .

الثاني ــ التربية : اذا نشأ الطفل بين اهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه ، اخذ اخذهم في الحرص ، وتخلق فيه باخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في

استحسان او استهجان، كانما هي عدوى الامراض التي تسري الى الانسان من حيث لا يدري بها ولا يشعر بسريانها ..ويحكى ان رجلا دخل منزلاً يعرف اهله بالشح والحرص ، فرأى طفلا صغيراً في يده ليمونة ، فطلب اليه ان يعطيه إياها ، فأجابه الطفل « ان يدك لا تسعها » !

الثالث ـ سوء الظن بالله : ذلك ان المتدين اذا اخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بان لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء ، فهو ارحم من ان يغفل شانهم ويكلهم الى انفسهم ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الايام ، فلا يلج به الحرص على الجمع ، ولا يزعجه الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان ، ضعيف الثقة بواهب الارزاق ومقسم الحظوظ والحدود ، فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخل ملكة راسخة فيه

الرابع ـ النكبات : كثيراً ما تحل بالانسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها ، ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال ، كان يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع في مثلها ، فكلما تمثلت له نكبة لج به الحرص واغرق في المنع ، حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً ثابتاً له ، ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حقبة من الزمان وكابد منه ما كابد من الآلام والاوجاع ، فانه مهما حسنت حاله وانتعشت نفسه وفاضت خزائنه بالفضة وبالذهب لا تذهب من فمه تلك المرارة ، ولا تضيع من ذاكرته آلامها . فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل اليه ما لا يتخيل ، ويريه ما لا يرى ،

كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في ابشع صورة وافظع شكل فهاله منظره ، وذهب الخوف منه برشده ، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالتي الامن والخوف ، والوحشة والانس .

الخامس ـ اللؤم : فان النفس اذا خبثت طينتها ولؤم طبعها ، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود باجمعه ، وبغض الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألما على ألم ، وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع ان يمنع عنهم سارية السماء ، ويعترض دونهم نابتة الارض لفعل .

السادس ـ سقوط الهمة : اذا نشأ الانسان عالي الهمة طموحاً الى المعالي محباً للذكر الحسن والثناء الجميل ، سهل عليه ان يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده او ذات نفسه ، وحب المجد ، اسال الذهب من خزائن الاغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسما بين شفرات السيوف ، وأسنة الرماح ، طلباً لسعادة الحياة بالذكر ، وسعادة المهات بالخلود . فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه الى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه ، وامتزاج حبه بلحمه ودمه ، أيدفعه حب الثناء ، وهو لا يشعر بلذته ؟ او خوف المذمة ، وهو لا يتالم منها ، ولا يحس بمرارتها ؟ أم سعادة الحياة وسعادة المهات ؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها ، وحلة يلبسها .

السابع ـ فساد المجتمع الانساني : ذلك ان كثيراً من الناس قد بلغ

بهم حب المال والتعبد له ان صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها ، خير يطمعون فيه ، بل لأنه ذو مال وذو المال في نظرهم احق الناس بالمحبة والاكرام والاجلال والاعظام ، وان لم يحصلوا منه على طائل ، فلو انهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لاصبحوا من عباده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء ان ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها الا الحرص على ما في يده ، وهو عمل يتكلفه ولا يتعمل له ، بل هو أشهى الاشياء اليه ، واكثرها ملاءمة لفطرته ، ليزداد شرفاً وعزاً ، كلما ازداد ثراء ووفراً ، ومن هنا قال احد البخلاء لاولاده : يا بني لان يعلم الناس ان عند احدكم مائة الف درهم اعظم له في اعينهم من ان يقسمها فيهم ،وقال رجل لآخر: يا بخيل ، فقال له : لا احرمني الله بركة هذا الإسم ، فاني لا اكون بخيلا الا اذا كنت غنياً فسم لي المال ولقبني بما تشاء .

هذه هي أهم الاسباب التي تالفت منها رذيلة البخل ، فان اغفلنا النظر اليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله ، حتى على نفسه وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق الى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة ، كان منال النجم اقرب من تطبيق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل ، لان الله تعالى خلق الانسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة ، بعضها نفسي ، والآخر جسدي ، فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة ، والجرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة

نزوات نفسه ونزعاتها الى ميولها ورغباتها ، لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز ، لأنه قادر ؛ ولا على الزهد ، لأنه ما زهد فيا لا ينفع فيزهد فيا ينفع ، ولا على الخوف من الفقر ، لأن عنده من المال ما يفني الاعمار ، فهيهات ان يفنيه عمر واحد ، ولا على رغبة في سعادة الذرية ، لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته ، فاما أن يشقى في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، فلم يبق لنا الا أن نتوسل الى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون ، حتى لا يكون مقصورا على المعربدين والهاذين ، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون ، والذين يجلبون لانفسهم بارادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على انفسهم بمناطحة الجدران ومطاردة الصبيان ، كما نتوسل الى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانونا لحفظ المال في صناديق المبذرين ، فان تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً ، اما حبسه فيضر صاحبه ، ويضر معه الناس أجمعين .

البعوض والانسان

جلست ليلة امس الى منضدتي وعلقت قلمي بين اصابعي ، وانشات أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن اكتب فيه .. وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشرائي : أنني لا أميل الى الكتابة في بياض النهار ، ولا احب ان اخط حرفاً على ما أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه .

ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنني لريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، او انني اترقب طلوع النجم لاتسلق اشعته الى سماء الخيال ، فكل ذلك لم يكن، وليس في الناس من هو ادرى بدخيلة امري مني ، وكل ما في المسالة ان هذه عادتي وتلك طريقتي ، وكفى .

لم اكد افرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في اذني ، ثم احسست بلذعاته في يدي، فتفرق من ذهني ما كان مجتمعاً وتجمع

من همي مـا كان مفترقاً ، ولم ار بداً من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل .

طاردته بالمذبة فما اجدى ذلك نفعاً لانه على الطيران اقوى مني على المطاردة ، وفتحت النوافذ لاخرج ما كان داخلا، فدخل ما كان خارجاً، وحاولت قتله فوجدته مبعثراً ، ولو كان مجتمعاً في دائرة واحـدة لهلك بضربة واحدة ، ولم ارى في حياتي امة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير امة البعوض ، فما اضعف هذا الانسان ، وما اضل عقله في اغتراره بقوته واعتداده بنفسه ، واعتقاده ان في يده زمام الكائنات يصرفها كيف يشاء ويسيرها كما يريد ! وأنه لو أراد أن ينهب بنظام هذا الوجود ، ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين ذلك إلا ان يرسل اشعة عقله دفعة واحدة، ويشحذ سيف ذكائه ، ويبتعث عزيمته ويقتدح فكرته .

يزعم ذلك ، وهو يعـلم انه اضعف من ان يحتـال لنفسه في مدافعة اصغر الحيوان جسماً وعقلا ، وادناها قيمة وشاناً ، بيد انـه يعـلم ذلك بلسانه ، وفي فلتات وهمه . ولو علمه علماً يتغلغل في نفسه ، ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه ، وخفض من كبريائه ، وعلم علم اليقين ان الانسان العاقل ، والحيوان الملهم ، والنبات النامي ، والجماد الجـامد ، سواء بين يدي القوة الالهية الكبرى ، التي لا ينفع نفعها حول ولا قوة .

علمت أني عييت بامر هذا الحيوان ، فلذت بجانب الصبر ، والصبر ــ كما يعـلم معشر الصابرين ــ حجـة العاجز ، وحيـلة الضعيف وأيسر مـا يستطيع انيدفع بهدافع عننفسه ملامةاللائمين،وفضول المتطفلين،وقلت

في نفسي : لو كان البعوض يفهم ما اقول لقصصت عليه قصتي ، وشرحت له عذري ، وسالته ان يمنحني ساعة واحدة اقوم فيها بكتابة رسالتي هذه، ثم هو بعد ذلك في حل من جسمي ودمي، ينزل منها حيث يشاء ، ويمتص منها ما يشاء ، ولكنه ـ ويا للأسف ـ لا يسمع شكاتي ، ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة ، لأنه ليس بإنسان .

احسب ان لذعات البعوض قد اخذت ماخذها من عقلي وفهمي ، وأني قد بدأت أهذى هذيان المحموم ، فمن اين لي ان لو كان البعوض إنساناً كان يسمع شكاتي ، ويكشف ظلامتي ، او أنه يفهم معنى الرحمة ويعرف قيمة المروءة ، ومتى كان الإنسان احسن حالاً من البعوض وارحم منه قلباً واشرف غاية ، فأتمنى لو كان مكانه ؟ بل ، ومن اين لي ان هذا الذي احسبه بعوضاً ليس بإنسان قد تقمص جسم البعوض وتمثل لي في صورته الضئيلة وجناحه الرقيق ؟ وأي غرابة في ان أتخيل ذلك ما دام الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل الى الأذى ، وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الجواهر الذاتية ، والاجزاء المقومة للماهية ؟

أي قيمة لما يمتصه البعوض من جسم الإنسان مجتمعاً في جانب ما يمتصه القاتل من جسم المقتول منفرداً ؟

ان البعوض في امتصاصه الدم من الجسم اقل من القاتل ضرراً واشرف غاية ، واجمل مقصداً ،لأنه ان أذى الجسم فقد أبقى على الحياة، ولأنه يطلب عيشه الذي يحيا به ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف

له طريقـا سواه ولا يستطيع ان يرى لنفسه غـيره ولو استطاع لعافت نفسه ان يكون كالانسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر .

إني وجدت بين الانسان والبعوض شبهاً قريباً في صفات كثيرة انا ذاكر لك طرفاً منها وتارك لفطنتك الباقي .

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتماله ، فلا يزال يشرب حتى يمتلىء فينفجر ، فهو يطلب الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة في مكامن الهلاك ، وهو اشبه شيء بشارب الخمر : يتناول الكاس الأولى منهـا ، لأنه يرى فيهـا وجـه سروره وصورة سعادته ، فتطمعه الأولى في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يتلفهـا ويؤدي بهـا ، من حيث يظن أنـه ينعشها ، ويجلب اليهـا سرورها وهناءتها .

البعوض سيء التصرف في شؤون حياته ، لأنه لا يسقط على الجسم الا بعد ان يدل على نفسه بطنينه وضوضائه . فيأخذ الجالس منه حذره ويدفعه عن مطلبه ، او يفتك به قبل بلوغه اليه ، فمثله في ذلـك كمثـل بعض الجهلة من اصحاب المطالب السياسية : يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم غير انهم لا يكتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة اليهـا الا بـين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويشهدوا الملأ الأعـلى والأدنى عليها ، وهنالك يدرك عدوهم مقصدهم ، فيعد له عدته ويتلمس وجه الحيلة في إفساده عليهم هادئاً ساكناً من حيث

لا يشعرون .

البعوض خفيف في وطأته ، ثقيل في لذعته ، فهو كذلك الصاحب الذي يسرك منظره ، ويسوءك مخبره ! يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال رقة وصفاء ، والسحر الحلال جمالاً وبهاء ، وبين جنبيه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب اليها سلسبيل الوفاء ، يقول لك : إني أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فان تم له ما أراد سلبك مالك ان كنت من ذوي المال ، وجاهك ان كنت من ذوي الجاه ، فان لم تكن هذا او ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك، ويثلم شرفك ، فان فاته ما يشفي به داء بطنته ، لا يفوته ما يطفيء به نار حقده وموجدته .

لا يزال البعوض ملحاً في مهاجمتي ، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد مما كتبت ، والسلام .

الجزع

يا صاحب النظرات :

لي صديق سقط في امتحان « البكالوريا » هـذه السنة فاثر فيـه ذلك السقوط تاثـيراً كبيراً ، فهو لا ينفك باكيـاً متالماً حتى أصبحنا نخاف عليـه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول : كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي ؟ وكيف أستطيـع مقابلة والدي وأهلي ؟ فهل لك أيها السيد ان تعالج نفسه بنظرة من نظراتك ، التي طالما عالجت بهـا قلوب المحزونين ؟ ؟

حقوقي

ليست المسالة مسالة صديقك وحده ، بـل مسالة الساقطين أجمعين ، فان المرء لا يـكاد يتناول نظره منهم في هـذه الايام الا وجوهاً قـد نسج الحزن عليهـا غـبرة سوداء ، وجفوناً تحار فيهـا مدامعها حيرة الزئبـق الرجراج ، حتى ليخيـل اليك ان نازلة من نوازل القضاء قـد نزلت بهم

فزلزلت أقدامهم ، او فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأثكلتهم ذخائر نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهناءته سداً لا تنفذه المعاول ، ولا تنال من أيده الزلازل .

خفض عليك قليلاً أيها الطالب ، فالأمر أهون مما تظن ، واصغر مما تقدر ، وأعلم وما احسبك الا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ الى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك ، ولم يهو بك القضاء الى هوة عميقة لا خلاص لك منها أبد الدهر .

إنك قد سعيت الى غرض فان كنت هيأت له أسبابه ، وأعددت له عدته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله ، فقد أعذرت الى الله والى الناس والى نفسك ، فحري بك ان لا تحزن على مصاب لم يكن عملاً من أعمال يديك ، ولا جناية من جنايات نفسك عليك ، وان كنت قصرت في تلمس أسبابه ، ومشيت في سبيله مشية الظالع المتقاعس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك ان تترقب فواته قبل وقت فواته ؟ وما بكاؤك على مصاب كان خيراً لك ان تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه ؟

ما لك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام ، ومطاوعة الاقدار ؟ وهل تستطيع ان تبرز لنا صورة العهد الذي اخذته على الدهر ان يكون لك كما تحب وتشتهي ؟ وعلى الفلك ان لا يدور الا بسعدك ، ولا يجري الا بجدك ؟ وعلى القلم ان لا يكتب في لوحة الا ما دللته عليه ، وأوحيت به اليه ؟

لا تجعل للياس سبيلا الى نفسك ، فلعل الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك ، وامض لشانك ولا تلتفت الى ما وراءك ، فان تم لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك ، او لا ، فما فقدت إذ فقدت الا ورقة كان كل ما تستفيده منها ان تشتري بها قيداً لرجلك ، وغلا لعنقك ، ثم ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس من الرؤساء المدلين بأنفسهم ، يسومك من الذل والخسف ما لا يحتمله الاسراء في سجون الآسرين .

ان اعتدادك بهذه الورقة هذا الاعتداد كله وإكبارك إياها هذا الإكبار العظيم دليل على أنك كنت تريد ان تجعلها منتهى املك ، وغاية همتك ، وانك لا ترى بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد ، فان صدقت فراستي فيك ، فاعلم ان الله قد خار لك في هذا المصير ، وساق اليك من الخير ما لا تعرف السبيل اليه ، وأنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم الا لتطلب لنفسك كمالا معلوماً ، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الاوراق ، الا لتسمى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب

ان كنت تبكي على الشرف فباب الشرف مفتوح بين يديك، لا شان للحكومة فيه ، ولا حاجب لها عليه ، وما هو الا ان تجد في التزيد من العلم والمعرفة ، واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية ، فاذا انت شريف في نفسك ، وفي نفوس الخاصة من الناس ، واذا انت في منزلة يحسدك عليها كثير من ارباب الشهادات والمناصب ، ولا حيى الله شرفاً يحيى بورقة ويموت باخرى، ولا مجداً ياتي به سطر ويذهب به سطر، وان

كنت تبكي على العيش ، ففي أين كتاب من كتب الله المنزلة قرأت ان ارزاقه وقف على الموظفين ، وحبائس على المستخدمين ؟ وأنه لا يامر بصرف درهم واحد من خزانته الا اذا جاءته سفتجة بتوقيع امير ، او اشارة وزير ؟

أيها الطالب .

قل لأبيك واخيك واهلك واصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء : ان الدي وهبني عقلي لم يسلبنيه ، وان الذي صور لي اعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب بها فيا خلقت له، وان الذي خلقني سوف يهدين، إنه الرزاق ذو القوة المتين .

النبوغ

من العجز ان يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً ، وان ينظر الى من هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم الى الحيوان الناطق،وعندي ان من يخطىء في تقدير قيمته مستعلياً ، خير من يخطىء في تقديرها متدلياً ، فان الرجل اذا صغرت نفسه في عين نفسه يابى لها من اعماله واطواره الا ما يشاكل منزلتها عنده ، فتراه صغيراً في علمه صغيراً في أدبه ، صغيراً في مروءته وهمته ، صغيراً في ميوله وأهوائه ، صغيراً في جميع شؤونه واعماله ، فان عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة .

ولقد سال احد الأئمة العظماء ولده ، وكان نجيباً : أي غاية تطلب في حياتك يا بني وأي رجل من عظماء الرجال تحب ان تكون ؟ فأجابه : احب ان اكون مثلك ، فقال : ويحك يا بني ! لقد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبك على عقلك البواكي ، لقد قدرت لنفسي يا بني

في مبدا نشاتي ان اكون كعلي بن أبي طالب ، فما زلت اجد واكدح حتى بلغت المنزلة التي تراها ، وبيني وبين علي ما تعلم ، من الشأو البعيد والمدى الشاسع ، فهل يسرك ، وقد طلبت منزلتي ان يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين علي ؟

كثيراً ما يخطىء الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس ، وبين الكبر وعلو الهمة ، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعاً ، ويسمون الرجل اذا ترفع بنفسه عن الدنايا ، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً ، وما التواضع الا الأدب ، ولا الكبر الا سوء الأدب ، فالرجل الذي يلقاك متبسما متهللا ، ويقبل عليك بوجهه ، ويصغي اليك اذا حدثته ويزورك مهنئاً ومعزياً ، ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ، لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه نتواضع ، والأدب ارفع لشأنه فتادب .

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكن كبرا ان يقال به كبر

فاذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل ان ينكس رأسه للكبراء ، ويتهافت على ايديهم واقدامهم لثماً وتقبيلا ، ويتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ، ويبصبص برأسه ،وهو سائر في طريقه بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق ، وعلى افواه الدروب جلسة البائس المسكين ، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب .

ان علو الهمة اذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه الى التنطع وسوء العشرة ـ كان احسن ذريعة يتذرع بها الإنسان الى النبوغ في هذه الحياة ، وليس في الناس من هو احوج الى علو الهمة من طالب العالم ، لأن حاجة الأمة الى نبوغه اكثر من حاجتها الى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون الا حسنة من حسناته ، وأثر من آثاره ؟ بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران .

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، او خرافة من خرافات الجان ، وحذار ان يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول : من لي بسلم اصعد فيها الى السماء حتى أصل الى قبة الفلك فاجالس فيها عظماء الرجال ؟

يا طالب العلم ، انت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك الى خلق غير خلقك ، وجو غير جوك ، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ، ولكنك في حاجة الى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهممهم ، وأمل أوسع من رقعة الارض ، وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة او بالسماجة ، فنعم الخلق هي ان كانت السبيل الى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون .

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم الى سماء المجد والشرف : علو الهمة

والفهم في العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته . وأمـا الفهم في العـلم ، فإليك الكلمة الآتية :

العلم علمان : علم محفوظ وعلم مفهوم ، أمـا العـلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين ان تسمع من الحافظ كلمة، او تقرأ في الكتاب صفحة ، فان أشكل عليك شيء مما تسمع ، فانظر ان نطق الكتاب بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ مـا يسمـع لأنـه قوي الذاكرة ، وقوة الذاكرة قـدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل ، لأن الحافظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقيـة الملكات : وانك لـترى الشيخ الفاني الذي لا يميـز بـين الطفولة والهرم ، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها ، ويرتعد فرقاً حينما يـ مع ابنته تخيف طفلها باسماء الجن والشياطين ، ويسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته مـا لو دونته لكان تاريخـاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر ، وقيـل لأحـد العلماء : ان فلاناً حفظ متن البخاري ، فقال : لقد زادت نسخة في البلد !

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ، لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أشربته روحه،وخالط لحمه ودمه ووصل من قلبه الى سويدائه ، وكان احدى غرائزه ، فلا يرى له بدأ من العمل به رضي أم أبى .

لولا ان العلم الديني قد اصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على ابواب الاحياء والاموات

في مزاراتهم وفي مقابرهم يسالهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً » من يسند النفع والضر الى كل من سال لعابه وتمزق إهابه ، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الانبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات .

لو كان العلم المحفوظ علماً ــ وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الاثر وقلة الجدوى ــ ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ، ولا قدّسه كاتب ، او ترنم بمدحه شاعر ، فاذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ ، وآية فهم المعلوم تاثر العالم به ، وظهوره في حركاته وسكناته ، وترقرقه في شمائله ترقرق الصهباء في وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل اليك . فربما مر بالمعلوم محرفاً فاخذه على علاته ، واقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والسمين ، والجيد والزائف ، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الادوية الشافية ، بالعقاقير السامة .

وجملة الأمر ان الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسال عن مذهب ، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدي به ، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله .

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي اذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار الى المجد بجناحين . وكان له سبيل مختصر الى منزلة العظماء

ودرجة النابغين ، والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور [١] ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ الا اذا وضع في العلم الذي مارسه مسالة ، او كشف حقيقة ، او اصلح هفوة او اخترع طريقة،ولن يسلس له ذلك الا اذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً الا اذا أخلص المتعلم اليه ، وتعبد له وأنس بـه أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر اليه نظر التاجر لسلعته ، والمحترف لحرفته ؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه ، لا ما يغلو جوهره ؛ والمحترف لا يهمه من حرفته الا لقمة الخبز وجرعة الماء ، احسن أم أساء .

لا يزور العلم قلباً مشغولا بترقب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الأموال ، كما يزور قلباً مقسماً بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرّة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام بالكأسين: كاس المدام ، و كاس الغرام .

(١) المراد ان العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر ، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدنيا الى انتهائها .

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله ، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة ، تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ، وهماً في نفسها ، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما هي مركبة على زئبق رجراج ، فسألت: ما شأنها ؟ فعلمت ان اهلها زوجوها وهي في هذه السن وعلى السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق . ثم زفوها اليه فحاول ان يفترشها ، وهي على حالة لا تستطيع معها ان تلم بفراش فامتنعت عليه ، فأراد اغتصابها فعجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، ففرت منه الى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بلادة وغفلة ، وأعادوها الى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من سجنه اليه مرة أخرى ، وهنالك عاد زوجها الى عادته معها ، فعادت هي الى فرارها ، فعاد أهلها الى قسوتهم وجبروتهم . فلما أعياها الامر خرجت الى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا

مستقراً ، حتى رفع امرها الى ذلك الحاكم ، فامر باستدعائها وآواها في منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجبهة الأسد. وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت اليه حادثة اخرى تشبه الحادثة الاولى من جميع وجوهها ، إلا أن الزوج في هذه المرة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدراً فعقرها كما عقر شقي ثمود الناقة من قبل .

إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها .

إنها لا تحسن عملا ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها الا قلب الرجل ، فإن استطاعت ان تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أو لا ، فلا مفر لها من الشقاء ، من المهد الى اللحد .

ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام ، وعقبات جسام ، لو كلف الرجل نفسه على ما به من قوة وأيد وسعة حيلة أن يجتاز واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام .

متى بلغت الفتاة سن الزواج سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو على تقدير اولئك الجهلاء اولياء امر تينك الفتاتين : استثقل اهلها ظلها وبرموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة ، والقومة والقعدة ، ورأوا انها عالة عليهم ، وان لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً . وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب ، أي خاطب كان ، يحمل في جبينه آية البشرى بالخلاص منها .

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم ، وقلوبهم من القسوة ، وهذه

منزلة فلذات اكبادهم من نفوسهم، لا يمكن بحال من الاحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج، او يحسنوا الاختيار لها حين يختارون فإذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأناً من شئون أهله ، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل .

فإن كانت ذات جمال او مال ، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق ، وإلا فهي تقاسي كلا صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع، آلاماً جثمانية تطفيء نور شبيبتها وتذبل زهرة حياتها ، وتلاقي في سبيل مصانعة الزوج ومداراته والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء ان بكى ما يجعل أخلاقها قضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء ، وهي فوق ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

ليست كلمة الاعدام من قبيل الاستعمال المجازى، فما أنس لا انس ليلة زرت فيها صديقاً لي ، فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ليس وراء ما بها من الهم غاية وكأنما هي الخلال رقة وذبولا ، ووراءها صبية ثلاث يدورون حولها ويجاذبونها طرف ردائها ، فتسبل فضل مئزرها على مآقيها المقرحة رأفة بهم ان يلموا ببعض شأنها فيبكوا لبكائها ، فسألتها عن شأنها فاخبرتني انها مطلقة من زوجها وان بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها وقد مر عليها زمن طويل و « الإرادة » تماطل في إنقاذه ، فجاءت الى هذا الصديق تستعين بـه على امرها ، ثم اخذت

تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدّة ومعالجة القوت ما أسال شئوننا ، وصعد زفراتنا وأمسكنا له أكبادنا خشية أن تصدعا .

فخففت أنا والصديق شيئاً من آلامها فانصرفت ، وفي صباح تلك الليلة سمعنا ان امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية فسألنا فعلمنا انها صاحبتنا بالأمس ، وانها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة .

أيها الرجل :

إن كنت تعتقد ان المرأة انسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدة ، والا فاحسن اليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك .

إن كنت زوجاً فلا تطردها من منزلك بعد ان تقضي ماربك منها كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وان كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضق بها ذرعاً ، ولا تلق بها في حجر وحش ضار يأكل لحمها ويمتص دمها ، ثم يلقي اليك بعظامها ،

ويا أيها المحسنون : والله لا اعرف لكم باباً في الاحسان تنفذون منه الى عفو الله ورحمته اوسع من باب الاحسان الى المرأة .

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها اولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها لينشأ في حجرها المستقبل العظيم للوطن الكريم .

تم بحمد الله الجزء الاول من النظرات ويليه الجزء الثاني.

مقدمة	٥
الغد	٤٣
الكأس الاولى	٤٧
الدفين الصغير	٥٢
مناجاة القمر	٥٧
أين الفضيلة	٦٠
الغني والفقير	٦٥
مدينة السعادة	٦٨
أيها المحزون	٧٦
الى الدير	٧٨
الرحمة	٨٤
رسالة الغفران	٩٠
عبرة الدهر	١٠١
أفسدك قومك	١٠٩
الصدق والكذب	١١٢
النظامون	١٢١
الحرية	١٢٣
عبرة الهجرة	١٢٧
الانصاف	١٣٠
المدنية الغربية	١٣٢
يوم الحساب	١٣٧
الشعرة البيضاء	١٤٤
الصياد	١٤٩
الانتحار	١٥٥
الجمال	١٥٨
الكذب	١٦١
غرفة الاحزان	١٦٣
الشرف	١٧٠
الحب والزواج	١٧٤
الاسلام والمسيحية	١٧٩
اهناء أم عزاء	١٨٩
الزوجتان	١٩١
في سبيل الاحسان	١٩٨
أدب المناظرة	٢٠٦
الاحسان في الزواج	٢١٠
لا مسيحية في الاسلام	٢١٥
البخيل	٢١٩
البعوض والانسان	٢٢٥
الجزع	٢٣٠
النبوغ	٢٣٤
البائسات	٢٤٠

المكتبة العلمية الحديثة

بيروت - لبنان

تقدم بكل فخر للعالم العربي أكمل وأجمل طبعة لآثار الكاتب الخالد الذي اغتذى بأدبه ملايين القراء في كل بلد عربي ألا وهو المرحوم

مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرات ٣ أجزاء

النظرات بمجلد واحد

العبرات

الفضيلة

الشاعر

ماجدولين

في سبيل التاج

المجموعة الكاملة لمؤلفات ال[illegible]
مجلدة في ٣ مجلدات